العدد الرابع

ربيع الأول ١٤٣٠

مجلة منتدى التوحيد

مجلة دورية شهرية تصدر عن منتدى التوحيد

WWW.ELTWHEO.COM

إشكالية العقل في الإلحاد

بقلم الأستاذ عبد الواحد

الإلحاد والنصرانية

الأستاذ ياسر جبر

الغيب بين الإسلام والإلحاد

الأستاذ مسلم ٣٠٠٠

أسامة العلمانية

د. أحمد إدريس الطعان

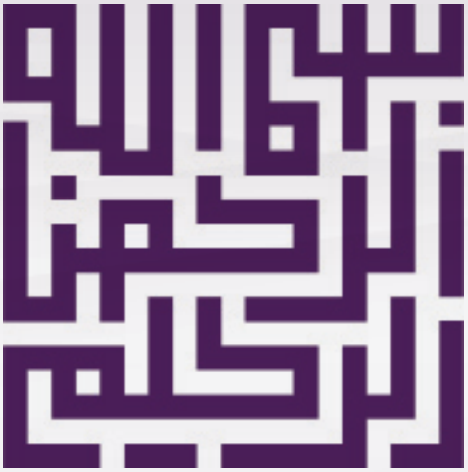

محتويات العدد

مقدمة العدد	٢
مصير الطغاة .. ودروس مستفادة من دعوة شعيب عليه السلام	٥
إشكالية العقل في الإلحاد	١٧
أسلمةُ العلمانية	٢٩
درسٌ منَ النبوَّةِ	٤١
المرأةُ الملحدة.. قصةُ مأساة!!	٤٧
لطائف وطرائف	٥١
حوارُ موحدٍ وملحد:بطلان التسلسل في الفاعلين	٥٣
الغيب : بين الإسلام والإلحاد! نظرةٌ موجزة	٥٧
لماذا نقولُ أن الإنسانَ أتى إلى الأرض بمُقدمةٍ سماوية ؟	٦١
الإلحادُ والنصرانية	٦٦
الأدلةُ القرآنيةُ على حجيةِ السنة النبوية (٢)	٧١
إنما النصر من عند الله (٢)	٧٩

مجلة منتدى التوحيد
مجلة دورية تصدر كل شهر

تأسست عام
١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م

تصدر عن موقع
منتدى التوحيد
www.eltwhed.com

العدد الرابع
ربيع الأول ١٤٣٠ هـ

فريق التحرير
مراقب ٢
muslimah
قرآن الفجر

فريق التصميم
أبو عمر الأنصاري
هاني

المراسلات
altwhed_com@yahoo.com

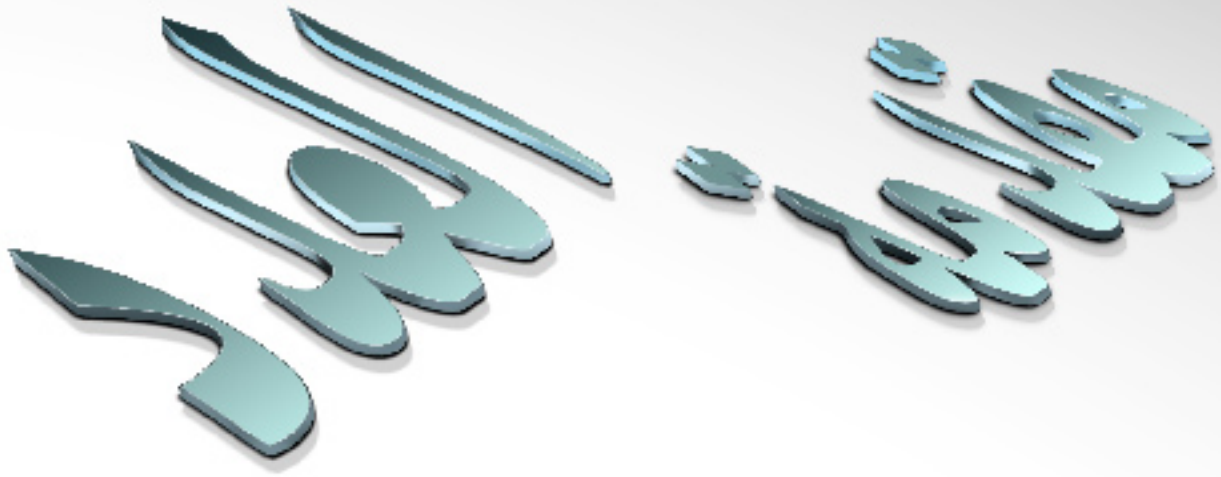

إذا كانت العقائد والأديان تُقاس بآثارها في حياة من يلتزمها التزاما مطابقا لها، بشرط أن تكون تلك الآثار ناشئةً عن ذلك الاعتقاد وذلك التدين لا عن مخالفته أو التقصير في امتثاله، فلن نجد حينئذ عقيدةً ولا دينا أحسنَ أثرا في أتباعه من عقيدة الإسلام ودين الإسلام، ولن يستطيع أحد أن يُزيل هذه الحقيقة من الواقع مهما استشهد الزور والكذب على دعواه، وإذا راعينا شرط الالتزام والاتباع للمعتقد والدين فلن يكون هناك مجال لاعتراضٍ مُتهاوٍ بأن من المنتسبين لذلك الدين ممن هو غيرُ متمثل له ولا ملتزم به من يُعدُّ حسنَ السلوك أو سيئَه باعتبار من الاعتبارات، فإن حسن سلوك المرء أو سوءه حينئذ ليس ناتجا عن تأثيرٍ فعّال لذلك الدين عليه حتى يكون أثرا خالصا لتطبيق الدين، بل قد يكون ذلك من تأثير مناقضته لذلك الدين أو إهماله له، وفي هذه الحال يكون من الخطإ البيّن أن تُنسب أفعالُ تارك التدين كليا أو جزئيا إلى تأثير التمسك بذلك الدين.

إن جوهر هذا الاستدلال يعتمد على العلاقة بين العقيدة والسلوك، وأثرِ كل ذلك على الحضارات والأمم والأفراد، وهو يراعي الإنصافَ في تمييز ما هو أثرٌ ناشيءٌ عن التدين، وما هو أثر عن ترك التدين أو التقصير فيه، وهو فرق كثيرا ما يلغيه أعداء الدين حين يُحمّلون الدين أخطاء من لا يحرص عليه ولا يمتثله، فكأنهم يقولون: إنّ هذا الفسادَ لدى بعض المتدينين الذين لا يطبقون الدين فسادٌ سببه تطبيقهم للدين! وهذه المقولة الساقطة تُعرَضُ في صورةِ مغالطةٍ عندما يُحذف منها حقيقة أنهم (لا يطبقون الدين)، فيكونُ في إلغاء هذا الفرق تركا للإنصاف والعدل، ومغالطةً يُقصد بها إضلالُ الناس عن الاستدلال على الحق، وهو تصرف يدل على نقص الفهم أو فساد النية عند فاعله، وقد يجتمعان.

وتتبين أهمية هذا الاستدلال في جانبين:

الأول: المقارنةُ بين الأديان:

فإن مقارنةً منصفة بين الأديان سوف تُوضح للدارس الأديانَ التي كانت أعظم تأثيرا إيجابيا في تاريخ البشرية، من جهة كمية التأثير وكيفيته، ولا ينكر منصف أن الإسلام هو أعظم هذه الأديان، فإن ما سواه من الأديان

المحرَّفة أو الوثنية إما أنه يقوم على التعارض بين الدين والدنيا، أو الدين والعلم، أو الدين وطبيعة الإنسان وغرائزه، أو يقتصر التدين فيه على مظاهر معينة لا يتعداها.ولا يوجد دين خرج بالناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم كدين الإسلام، فإنه حثَّ على العلم وجعل تعلمه فرضا على المسلمين، إما فرضا عينيّا على كل واحد منهم، أو فرضا كفائيا إذا قام به من يكفي سقط وجوبه عن الباقين وبقي تعلمه مباحا أو مندوبا لعامة الناس.

وليس هناك دين باطل إلا وله آثار سيئة في سلوك المجتمعات والأفراد الذين يتمثلونه في حياتهم، ويكفي مثالا على ذلك بطلانُ دين النصارى بدلالة ما وقع من الصدام الشديد بين النصرانية والعقل والمكتشفات العصرية، وهو صدام قائم على التمسك بالنصرانية المحرفة لدى الباباوات والقساوسة، ذلك الصدامُ الذي أوجد المرتع الذي يسرح فيه ملاحدةُ الغرب مبررين لادينيتهم بعدم صحة النصرانية، وهو استدلال إن أبطل النصرانية فلا يبطل أحقية الإسلام، إذ أن الإسلام بريء من مناقضة العقل والحس براءةً يشهد بها تاريخ الحضارة العلمية في الإسلام. وإن دينا يقوم الاستدلال فيه على موافقة العقل للنقل، ليس كدين النصارى الذي يجب أن يلغي المؤمن به عقله حتى يصدّق بأن الله ثالث ثلاثة كلهم مع تعددهم شخص واحد!

وهذه المقارنة بين الأديان إذا روعي فيها معيار الكمية والكيفية في التأثير الإيجابي لا السلبي، ستكون مقارنة واضحة لا تستعصي على الأذهان ولا تُفني الوقتَ ولا العمر في التوصل إلى نتيجتها، فليس هناك في العالم دين اتصف بالتأثير الإيجابي الكبير كمًا وكيفًا كدين الإسلام، وأما انتشار بعض الأديان الباطلة فإنه مصحوب بتأثيرات سلبية لا تخفى على إنسان، فإنها جميعها أديان وثنية، تتقرب للجمادات أو الأموات أو الأوهام، وتنسب لها التصرف في الكون، والنصرانية في عبادتها للمسيح وأمّه قد تركت التوحيد ووقعت في الشرك والوثنية، فسقطت في مناقضة العقل والفطرة سقوطا مدويا، وأما اليهودية المحرفة فإنها دين عنصري قائم على العصبية المقيتة، كما أنها تناقض العقل في وصف الخالق الكامل بأنه يتعب بعد خلق السموات والأرض، ويبكي ويحزن، ويصارع إنسانا فيغلبه ذلك الإنسان! ولا يصدّق بهذا من له مسكة من عقل، وليس بين وثنية عُبّاد الأصنام ووثنية عباد العجل ما يخرج اليهود عن وصمة الوثنية.

الثاني: إبطال اللادينية:

فإننا إذا أردنا أن نطبق معيار الآثار على اللادينية فسنجد أنه لا مانع أبدا في اللادينية من كل سلوك سلبي يختاره إنسان مهما كان مضرا بغيره، إذ إمتاع النفس بالإضرار بالآخرين ليس فيه محذور لاديني، فإن المحاذير كلها لا تكون لها حقيقة عند اللادينية ما دام أن وجود الإنسان صائرٌ إلى عدمٍ وفناء، ولا وجودَ لهدفٍ إيجابي لهذه الحياة حتى تنتج عنه تصرفات إيجابية لدى اللاديني.

وإذا قسنا بهذا المعيار أفعال الفرد اللاديني، فسنجده خليًا من كل ضابط سلوكي إلا مدى إشباع سلوكه لنزواته النفسية أو الجسدية، وكل ضابط عدا ذلك فهو ضابط وهمي جدلي، إما أن يكون نكوصا من اللاديني عن لادينيته، أو يكون مرغما عليه بتأثير المجتمع في تصرفاته، أو هو مجرد مداهنة ومداراة للآخرين عندما لا

يمكنه خداعهم أو انتهاب ما يملكونه في حضرتهم.

وإذا أردنا أن نطبق هذا المعيار على مجتمع إلحادي لا ديني فلن نجد مجتمعا لادينيا حقيقة، وإنما سنجد دولا حاولت فرض اللادينية على شعوبها فلم تنجح في ذلك، وإنما حوّلت التدينَ من سلوك يمارس في العلن، إلى سلوك حي في الضمائر وتحت الأقبية وخلف الجدران، أما أن يكون هناك مجتمع لاديني باختيار جميع أفراده لا تُفرض فيه اللادينية فرضا على أفراده، فهذا مجتمع لا وجود له في التاريخ، إذ لا وجود لمجتمع إلا بدين، سواء أكان هذا الدين حقا أم باطلا، وسواء أكان دينا كاملا موافقا للعقل والفطرة، أم مجرد طقوس وأوهام تناقض العقل والفطرة.

فاللادينية ليست سوى توجهات فردية لا تؤسس مجتمعا، إلا إذا تحولت إلى دين ما مناقض لها فتنتفي حينئذ عن المجتمع وصمة اللادينية ويثبت له نقيض اللادينية، بغض النظر عن ماهية هذا الدين الذي اعتنقه ذلك المجتمع لتنبثق منه ضوابطُه وقوانينه، فإن اللادينية تنفي مع نفيها للدين كلَّ ضابط يحكم السلوك، ثم هي تبرر لكل لاديني مخالفته للضوابط التي لا ينتظم أمر مجتمع بغيرها، وبهذا تسقط اللادينية سقوطا مدويا في عالم الاجتماع والتحضر وتاريخ المجتمعات، حيث تعجز بجميع أفرادها عن تكوين مجتمع لاديني لا يحكمه الدين، فضلا عن أن تكون لذلك المجتمع آثارٌ إيجابية ناشئة عن ترك التدين مطلقا.

إن هذا البرهانَ التاريخي الاجتماعي على صحة الإسلام وبطلان غيرِه يتطلب من الناظر فيه أن يكون صادقا منصفا في دراسته للإسلام ومقارنته له بغيره، أما من يتخفى وراء المغالطة فينسبُ أفعالَ من يترك الدين أو يُقصّر فيه إلى الإسلام فليس تخفيه هذا برائج على العقلاء الذين تنكشف لهم هذه المغالطات عن عراء فكري مخزٍ لدى أعداء الحق والعدل والإنصاف، ومن تدبر هذا هداه حسن تفكيره إلى الحق، ومن ألغى تفكيره أو اتّبع الأوهام والمغالطات فلن يخدع إلا نفسه، ولن يَخفى جهلُه وتحريفه عن أصحاب العقول الراجحة، والأفهام الصحيحة.

مصير الطغاة..

ودروس مستفادة

من دعوة شعيب عليه السلام

بقلم ATmaCA

مهندس برمجة الذكاء الاصطناعي وبرامج الحاسب الذكية

بسم الله الرحمن الرحيم , نعبده لا نشركُ به شيئًا , سبحانه وتعالى , الخالقُ البارئُ المصور ..

وأصلي وأسلم على خير خلقه , محمدٍ صلى الله عليه وسلم..

تزوج شعيبٌ عليه السلامُ بحفيدة سيدِنا لوطٍ عليه السلام ..وكان كثيرَ البكاءِ من خشية الله، وهو خطيبُ الأنبياء، وذلك لِحُسن فصاحتِه , وقوةِ حُجتِه , ووضوحِ برهانِه , وقد بعثه الله إلى أُمتين من العرب العاربة: قبيلةِ مدينَ وأصحابِ الأيكة.

أما قبيلةُ مدينَ فهم عشيرتُه وأهلُه، وكانوا يسكنون أرضَ معانٍ من أطرافِ الحجاز مما يلي الشام، بالقرب من بحيرةِ لوط.

وأصحابُ الأيكة نسبة إلى الأيكةُ وهي غيضةٌ تُنبتُ ناعمَ الشجر، ويتكاثرُ فيها بواسقُ النخيلِ والدَّوحُ حتى يلتفَّ بعضُه ببعضٍ، وتصبحُ لكثرة أشجارِها، والتفافِ أغصانِها بعضُها على بعضٍ رهيبةً مخيفة، لا يستطيع أحدٌ أن ينفذَ داخلَها لكثرة ما يُظنُّ بها من أوهامٍ وشكوك.

ولعل هذا هو السرُّ في أنهم عبدوها من دون الله، وإلى ذلك يشير القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا
[الأعراف : ٨٥]

فذَكَر سبحانه أنه أخوهم وحينما تحدث عن أصحاب الأيكةِ لم يُثبت نسبَه إليهم ولكنه قال:

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ
[الشعراء : ١٧٦]

وأرضُ مدينَ قريبةٌ من الحدود المصريةِ في جنوب فلسطين، وكانت أرضُهم مخضبةً تُنبتُ كثيرًا من الزروع والفواكه، وتمنحُهم ما يصبون إليه من الحدائقِ والبساتين، وكانوا بفضل ما وهبهم الله من الرياض المثمرةِ والزروعِ اليافعةِ في سعةٍ من العيش ورغَدٍ من الرزق، إلا إنهم كانوا يتخلقون بأخلاقٍ قبيحة، ويعتادون عاداتٍ مرذولة، وكان القوم -بجانب زراعتِهم- أهلَ تجارة، لكنهم يَغُشون الناسَ في البيع والشراءِ فإذا باعوهم شيئاً نقصوا المكيالَ والميزانَ وأعطوا الناس دون حقوقِهم و أقلَّ من نصيبِهم.

أما إذا قُدِّر لهم أن يشتروا شيئاً منهم، عاملوهم عكسَ ذلك واستوفوا نصيبَهم منهم كاملًا غيرَ منقوص، واشترَوا منهم بكيلٍ غيرَ الذي باعوهم به، وأخذوا أكثرَ من حقِّهم وفوق ما أحل اللهُ لهم.

بل إنهم كانوا شرًا من ذلك فقد كانوا يقطعون الطُرق، ويفرضون على القوافلِ التي تمر بأرضِهم العُشورَ والمُكوس، وقد يقتلون المسافرينَ ويَسلبون كلَّ ما معهم من مالٍ ومتاع، وكانوا لا يخافون اللهَ في أعمالِهم ولا يتقونه في أقوالِهم وأفعالِهم، لأنهم كانوا يعبدون غيرَه ويقدسون آلهةً سواه، ويزعمون أن هذه الآلهةَ هي التي خلقتهم، وهى التي ترزقهم، وهى التي تمنحهم المال والأولاد وتهبهم السعادة والهناء، وبيدها وإليها كل الأمور ..

إرسالُ شعيبٍ عليه السلام

اشتد شرُّ القوم، واستشرى فسادُهم، وكثر طغيانُهم وضلالُهم، فأرسل الله إليهم نبيًا منهم يُذكرُهم بالله وعظمتِه، ويرشدهم إلى جلالِه ووحدانيتِه، وذلك رحمةً منه بعبادِه لئلا يكون للناس على الله حجةً بعد الرسل، ولم يكن سيدُنا شعيبٌ عليه السلام بالرجل العادي في قومِه، ولا بالرجل الخاملِ في عشيرتِه، ولا بالمتهم في أخلاقِه وسيرتِه، وإنما كان رجلًا من خيارِهم، وصالحًا بشهادتهم يعرفون صِدقَه وأمانتَه، ويُقدرون ورعَه وزُهدَه، ويشهدون له بكل ما يُشرفُ الرجالَ الأماثلَ من مكارم الأخلاق، وكان أن اصطفاه اللهُ من بينِهم ونبأَه رسولًا عليهم، وأمرَه أن يدعوَ قومَه إلى عبادة الله، وأن يرشدَهم إلى دينِه الحقِّ وينهاهم عن الرذائلِ والعيوب، ويَزجُرهم عن ارتكاب الذنوبِ والآثام، وفى مقدمتِها تطفيفُ الكيل وبَخسُه، وقَطْعُ الطريقِ عن الناس، ويُذكرُهم بعد ذلك بنِعَم اللهِ وآلائه ومِنَنِه وأفضالِه ثم يُخوفُهم غضبَه ويُحذرُهم نقمتَه وبطشَه إن لم يرجعوا عن غيِّهم ويستقيموا على الصراط المستقيم.

وقد زوده اللهُ بالكثير من الآيات، والعديدِ من المعجزات، ليكون ذلك أدعى إلى تصديقِهم له وإيمانِهم به، وإقبالِهم على دعوته، وتلك هي سنةُ الله مع أنبيائه حينما يختارُهم رسلًا إلى أقوامِهم، وإن كانت الكتبُ لم تُبين لنا حقيقةَ هذه الآياتِ ولا ما هي تلك المعجزات.

وقد أقبل شعيبٌ على قومِه قائلًا لهم في حِلمٍ وأناةٍ ونُصحٍ وإشفاق:

يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه، وإياكم وعبادةَ الأصنام من دونه فإنها لا تضرُّ ولا تنفعُ ولا تبصرُ ولا تسمعُ ولا تُحيي ولا تُميت ، فهو الذي يملك لكم النفعَ والضُّرَّ والحياةَ والموتَ والمنعَ والعطاء، فاعبدوا مَن هذه صفاتُه، وتخلقوا بأخلاقِ المؤمنينَ الأتقياء، وعليكم بالصدق والأمانةِ في البيعِ والشراء، وإياكم أن تُطففوا الكيلَ ولا تبخسوا الميزان، فإن ذلك عونٌ على نشْرِ الفسادِ في الأرضِ وأكلِ أموالِ الناسِ بالباطل وكسْبِ المال من غير طريقٍ مشروع، ولا تظنوا أن هذا يكسبُكم الغِنى والثراء، فإنه وإن كان ظاهرُه الغِنى إلا أن باطنَه السُّحقُ والمحقُ لأنه من طريقٍ يبغضُه الله، ولَحلالٌ قليلٌ يباركُ الله فيه خيرٌ من حرامٍ كثيرٍ ينزعُ اللهُ البركةَ منه، واعلموا أنكم

إن فعلتم ذلك وامتثلتم أوامرَ الله ووقفتم عند حدودِه فقد رجوتم لأنفسِكم البركةَ في الدنيا وأمِنتم عذابِ اللهِ في الآخرة، وحسبُكم هذا الغُنمُ في عاجلِكم وآجلِكم.

بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ
[هود : ٨٦]

وقد أظهر اللهُ لكم الكثيرَ من الآيات في الأمم السابقةِ الذين عصَوا ربَّهم ، فطهَّر اللهُ الأرضَ منهم وأصلحها بعدلِه بعد أن عاثوا فيها الفساد، وأكثروا فيها الشرورَ والفجور، واليومَ وقد صلُح حالُها واستقام أهلُها فلا تكونوا كمن نقضَ حبلَها بعد إحكامِه وقوَّضَ أمرَها بعد إبرامِه !! إنكم تستخدمون نِعمَ الله في غير ما خُلقتْ له ، فلقد كنتم فقراءَ فأغناكم، وضعفاءَ فقواكم، وقلةً فكثَّركم، فكونوا للحق أنصارًا، ولا تقطعوا على الناس طريقَهم، ولا تصُدوا الناس عن الدخولِ في دين الله سبحانه وتعالى، واعتبروا بمن مضى قبلَكم من السابقينَ الأولين، فقد أصبحوا أثراً بعد عين!!!، وهم الآن تحت التراب!!!، رَهْنَ أعمالِهم ينتظرون الحسابَ والمصير !! ..

ونجدُ في كلام شعيبٍ عليه السلامُ دعوةً للتوحيدِ الخالص

يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
[هود : ٨٤]

وفي الصحيحين عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال لجبريلَ عليه السلام لما سأله عن الإسلام قال: ﴿أن تعبدَ اللهَ ولا تشركَ به شيئاً وتقيمَ الصلاةَ المفروضةَ وتؤدي الزكاةَ المكتوبة﴾ الحديث. وفي صحيح مسلمٍ عن ابنِ عمرٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿بُني الإسلامُ على خمسٍ، على أن يوحَّدَ اللهُ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وصومِ رمضانٍ وحجِّ البيتِ﴾ وفي روايةٍ أخرى له: ﴿على أن يُعبدَ اللهُ ويُكفرَ بما دونَه﴾ الحديث. وأصلُه في الصحيحين مرفوعًا بلفظ: ﴿بُني الإسلامُ على خمسٍ: شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وصومِ رمضانَ وحجِّ البيت﴾.

وروى مسلمٌ رحمه الله حديثَ سؤالِ جبريلَ عن الإسلام والإيمانِ والإحسانِ من حديث عمرَ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال لجبريلَ لما سأله عن الإسلام: ﴿الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ وتقيمَ الصلاةَ وتؤتيَ الزكاةَ وتصومَ رمضان وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلا﴾.

فدلت هذه الأحاديثُ، وما جاء في معناها على أن معنى شهادةِ أن لا إله إلا الله: هو **توحيدُ الله وإخلاصُ العبادة له والكفرُ بما يُعبدُ من دونه**. وهذا المعنى هو حقيقةُ التوحيدِ الذي بعث الله به المرسلين، وأنزل به الكتب، وقام عليه سوقُ الجهاد، وانقسم الناسُ فيه إلى كافرٍ ومؤمن، وشقيٍّ وسعيد. فالواجبُ على كل

مُكلَّف، أن يحرِص على أسبابِ النجاة، وأن يلتزمَ بتوحيدِ الله سبحانه ويُخلصَ له العبادةَ جل وعلا، ويَكفرَ بعبادة ما سواه، ويتبرأَ منها، ويُوالي على ذلك، ويُعادي عليه، كما قال الله ﷻ :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

[الممتحنة : ٤]

فهذا هو دينُ المرسلين جميعًا، وهو الدينُ الذي بعث الله به خاتَمهم وأفضلَهم نبيُّنا محمدٌ ﷺ . فعلى كل مسلمٍ أن يعضَّ عليه بالنواجِذ، وأن يستقيم عليه، وأن يدعوَ الناسَ إلى ذلك بكل صدقٍ وإخلاص، وأن يصبرَ على ما أصابه في سبيل التمسكِ به، والدعوةِ إليه كما قال الله ﷻ لنبيه عليه الصلاةُ والسلام :

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

[الأحقاف: ٣٥]

وقال تعالى:

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ

[النحل: ١٢٧]

وقال سبحانه:

وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

[الأنفال: ٤٦]

وقال ﷻ :

وقال ﷻ:

كما نجدُ في موقف شعيبٍ عليه السلام إخلاصًا لله تبارك وتعالى

الإخلاصُ سببٌ مباشرٌ وطريقٌ موصلٌ لنجاح دعوةِ الداعية، وإتيانِها الثمارَ المطلوبة، لِما يورثُه الإخلاصُ من راحةٍ نفسيةٍ وقوةٍ قلبيةٍ تُعين صاحبَها على التخطيطِ السليمِ واجتيازِ مصاعبِ الدعوة، وتَحمُّلِ مشاقِّ التبليغ.

قال لهم ذلك سيدُنا شعيبٌ عليه السلام وظن أنه أبلغَ لهم في الحجة، ومَحضَهم النصح، وأمعنَ في الوعظ والإرشاد، فكان جوابَهم على قولِه الإعراضُ والإنكارُ والزجرُ والوعيدُ، فاتهموه في نُصحِه، وكذبوه في قولِه، وأغلظوا له في القول، وأكثروا من التهكمِ به، والسخريةِ منه، وبالغوا في احتقارِه وازدرائه!! وقالوا له في تبجحٍ ووقاحة:

كانوا يقصدون من قولِهم هذا الإساءةَ إليه، والتنكيلَ به، فكيف به ينهاهم عن شيء قد ألفوه، ويأمرُهم بتركِ دينٍ قد ورثوه، ثم هو لم يكتفِ بهذا، بل جاوزه إلى التدخلِ في كسبِهم، وإبداءِ رأيه في جلب أموالِهم، وقد اختاروا لأنفسِهم طريقًا ظنوا إنه سيوصلُهم إلى الغنى والثراء، ولا عليهم إن كان ذلك الطريقُ حلالًا أو حرامًا، وسَيّانَ عندهم أن يُغضِب ذلك الفعل الله أو يُرضيه!!!!!، وأن من يهديه عقلُه إلى الدعوةِ إلى تركِ دينٍ اعتنقه الآباءُ، والسلوكِ في طريقٍ يؤدي إلى الفقرِ بعد الغنى .. لهُو جاهلٌ أحمقٌ وضالٌّ مأفون ..

فلم يُغضب قولُهم نبيَّ الله، ولم يَضِقْ صدرُه منهم، ولكنه رحم جهلَهم وأشفق عليهم لغفلتِهم عن الحق وعمايةِ قلوبِهم عن الصواب وعاود نَصحهم من جديدٍ وقال لهم:

يا قوم إنكم تتهمونني بالجهل، وتصفونني بالضلال، وتتهكمون برأيي، وتسخرون من نُصحي، أَوَما تعلمون أن الله اصطفاني عليكم، وبعثني رسولًا إليكم، وقد وهبني الحجةَ البالغةَ وأيدني بالبرهان الواضح، والقولِ السديدِ والرأيِ الرشيد، وإني ما أمرتُكم بشيءٍ إلا وقد ائتمرتُ به قبلَكم، ولا نهيتُكم عن شيء إلا أخذتُ به نفسي، وهل يريد نبيٌّ لقومِه إلا ما يريده الأبُ لِبنيهِ من النجاح والفلاح في الدارين والنعيمِ والفوزِ في الحياتين!!، وإني إذ أنصحُ لكم وأُخلصُ في النصيحة وأعظُكم، وأُبالغُ في الوعظ، لا أنتظرُ منكم جزاءً ولا شكورًا، وإنما أبتغي بنُصحي ووعظي وجهَ الله، إنني لا أريدُ لكم إلا الخيرَ والنفع، ولا أبتغي لكم إلا الرشادَ والسداد، ولا أودُّ لكم إلا الصلاحَ والإصلاح، فإن وفقني اللهُ لذلك، وأعانني عليه، فالمُلكُ ملكه والأمرُ أمرُه فلا نتوكلُ إلا عليه ولا نلجأُ إلا إليه ولا نثقُ إلا في عونِه وهُداه فلا تتحِدوا ضد دعوتي ولا تحاربوا رسالتي وخافوا عذابَ الله واتقوا يومَ الجزاءِ والحسابِ فإن لم تسمعوا قولي ولم تُذعنوا لأمري ولم تستجيبوا لنُصحي، أصابكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد، فهلموا إلى ربكم واستجيبوا لأمرِ نبيِّكم وتوبوا إلى الله من ذنوبِكم فإنه تعالى لا يَردُّ تائبًا ولا يُخيبُ داعيًا ولا يُغلقُ أبواب السماءِ في وجه مستغفرٍ منيب ..

قال ذلك شعيبٌ لقومه، يُرغِبُهم في الله تارة، ويُخَوفُهم من بأسِه وغضبِه تارةً أخرى، فكان جوابُهم له أقبحَ مما قالوه من قبل!!!، وكان كلامُهم يشبه كلامَ البُلهاء، وموقفُهم أقربُ إلى مواقف الأغبياءِ الجهلاء، وقالوا له والوقرُ يملأُ آذانَهم، والحمقُ يهيمن على مشاعرِهم وحواسِّهم:

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ

[هود: ٩١]

فتعجب نبيُّ الله من قولِهم، وضاق ذرعًا بقبيح أفعالِهم، واستولى عليه الدهشُ أن يخاف قومُه من كبراءِ عشيرتِه وأن يهابوا العظماءَ من قبيلتِه، وقد يكونون أشرارًا أراذلَ أو عُتاةً جبابرة، ثم لا يخافون اللهَ ولا يخشَون بأسَه ولا يتقون لقاءَه يومَ الدين ..

أليس اللهُ وحدَه هو قاهرُ الجبابرةِ ومُذلُّ الملوكِ ومُبيدُ الأممِ التي خلت، والقرونِ التي مضت، والفراعينِ الذين طغَوا في البلادِ وأكثروا فيها الفساد، فكيف يُعييه هؤلاء؟ وكيف يُعجزونَه وهم خلْقُه وصنعُه؟!!! ومن ذا الذي يجهلُ قُدرة الله؟؟!! ومن الذي لا يَعترفُ له بالقوة والسطوةِ والجبروت؟!!

ألا يعلمُ هؤلاءِ الأغبياءِ أن القويَّ من قَوَّاه الله! وأن العزيزَ من أعزَّه اللهُ وتولاه، وأن الرشيدَ المهتدي من أرشدَه اللهُ إلى طريقِ الهدايةِ وسبيلِ الاستقامة، ومنَحه التوفيقَ والسداد؟

ذلك هو إحساسُ شعيبٍ حينما قال لهم والأسى يملأُ صدرَه والحزنُ يُفتتُ كبِدَه عسى قولُه أن يوقظَ شعورَهم ويُنبهَ عقولَهم ويرشدَهم إلى طريق الحقِّ ويأخذَ بناصيتِهم إلى الصوابِ فيعلموا الفرقَ الواضحَ بين عزةِ المخلوقِ الذي تؤلِمُه بقة وتقتُلُه شَرقة!! إن غاب عنه الطعامُ هلك، وإن حُبِسَ عنه الهواءُ اختنق، وإن حُبسَ عنه الماءُ مات، فأيُّ الفريقين أعزُّ وأقوى لو أن هؤلاءِ يعقلون ما يقولون ..قال لهم شعيبٌ عليه السلام:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۞ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ

[هود: ٩٢-٩٣]

قال شعيبٌ لقومِه هذا القولَ المحكم، وأَسمعهم ذلك النصحَ الخالص، وهذا الوعظَ المؤثر، وظن أنه هزَّ منهم القلوبَ والعواطف، وأيقظَ منهم العقولَ والمشاعر، ونبَّه الأحاسيسَ والوجدان، ولكن الملأَ منهم والأشرارَ الطغاةَ من قومِه والعتاةَ المستبدينَ من ساداتِهم رفضوا ذلك النُّصحَ، وردوا على شعيبٍ وعْظَهُ وزجْرَهُ وتزعَّموا الضعفاءَ والمستضعفينَ من قبيلة مدين، ووقفوا جميعًا كتلةً واحدة، وصَفاً متراصًا أمام شعيبٍ ومَن معه مِن المؤمنين، فقد آمن به جماعةٌ منهم، وإن كانوا قلةً واستجاب لدعوته صَفوةٌ من الأخيار، رفضوا عبادة غيرِ الله ودخلوا تحت لواءِ نبيِّ الله، ورأَوا في كل ما يدعو إليه شعيبٌ السلامةَ والنجاةَ في الدنيا والفوزَ والسعادةَ يومَ لقاءِ اللهِ فدخلوا في دينِه وعملوا على طاعتِه وخالطت حلاوةُ الإيمان وبشاشتُه قلوبَهم، ومازجت حرارتُه لحومَهم ودماءَهم، فغاظ ذلك كبراءَ عشيرتِهم وآلم طغاتَهم ورأَوا أن شعيبًا وهو شيخٌ ضرير!! سوف يعتزُّ بهؤلاءِ من ذِلة، وسوف يتقوى بهم من ضَعْف، وينتصرُ بهم من خِذلان، وسيجدُ فيهم القوةَ بدلًا من عشيرتِه، وعِوضًا عن قبيلتِه، وربما آوى إليهم الشريدُ والطريد، والتجأ إليهم الفقيرُ والمسكين، واعتصم بهم المظلومُ والمهضوم ، فكانوا قوةً مرهوبةَ الجانبِ نافذةَ الكلمةِ، ثم لا

يلبثُ أن يكونَ الأمرُ لهم والحكمُ بأيديهِم وتصبحُ لهم في مَدين القيادةُ والسلطان.

لهذا حرصوا جهدَهم على التخلص من شعيبٍ ومَن معه من المؤمنين قبل أن يستفحلَ خطرُهم، ويعظُمَ أمرُهم وتكونَ لهم الصولةُ والنفوذُ وكان أن استقر رأيُهم على إخراجِهم من أرض مَدين، وأعلنوا بذلك شعيبًا ومن معه مِن أولئك الذين استجابوا لنداءِ الحق وتركوا عبادةَ الأصنام والأوثانِ وتجنبوا تطفيفَ الكيلِ والميزان، والذين رأَوا أن الخيرَ كلَّ الخيرِ ما أمرهم به اللهُ تعالى ورسولُه، فاستقام أمرُهم وحسُنت أحوالُهم فلا يقطعون طريقاً ولا يصدون الناسَ عن سبيل اللهِ وأصبحوا يعبدون اللهَ ولا ينسَون فضلَه ولا يتجاهلون معروفَه ولا يجحدون قديمَ إحسانِه إليهم ولا كثيرَ أفضالِه عليهم ولا يجترئون على سلطانِه بإنكارٍ أو إعراضٍ، خوفًا من بأسِه وقوتِه وجبروتِه ..

أما أولئك المعرضونَ الكفرةُ وأولئك الطغاةُ الفجرة فقد قالوا لشعيب:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا

[الأعراف: ٨٨]

وصمموا على إخراجهم من أرضهم وطردِهم من ديارِهم، إن لم يكفروا بشعيبٍ ويتركوا دينَه ويقاطعوا عبادةَ اللهِ وتعاليمِه، وكان ذلك أولَ إنذارٍ بكل ما أُوتي من حُجةٍ وبرهانٍ وبيَّن لهم أن الإيمان إذا خالطت بشاشتُه القلوبَ لا يمكنُ أن يَستبدلَ الإنسانُ به ظلمةَ الكفرِ وسخافتَه، وكيف يعودُ إلى ظلام الكفرِ ومرارتِه من تذوقَ حلاوةَ الإيمان وأبصرَ نورَ التوحيد ؟!!

على أن القلوبَ بيد الله، والنفوسَ في قبضته تعالى فمن أراد له الهدايةَ يسَّر له طريقَها وهيأ له أسبابَها، وأعانه عليها، ولو اجتمع الناسُ على أن يصدوه عن الحقِّ أو يُضلوه عن سواءِ السبيلِ ما استطاعوا، والله قد أراد لنا الخيرَ وكتب لنا الهداية، فإذا أراد بنا أمراً كان، فهو العليمُ الخبيرُ والمدبرُ القدير:

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

[طه: ٩٨]

قال ذلك شعيبٌ لكبراءِ قومِه وعظمائِهم، ثم ولى وجهَه عنهم، وقام هو ومَن معه من الأتباعِ يضرعون إلى اللهِ أن يدفعَ عنهم أذى قومِهم، وأن يردَّ عنهم كيدَهم وشرَّهم بقوتِه وسلطانِه، وأن ينصرَهم على الطغاةِ

المستبدين، قائلين في ضراعةٍ وخشية:

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ
[الأعراف : ٩٨]

ولكن الكفارَ الطغاةَ لم تنكسر لهم شوكة، ولم تلِن لهم قناة، فواصلوا إيذاءَ المؤمنين، وحرصوا على الكيد للمهتدين، وقالوا لقومِهم لا تسمعوا نُصحَ شعيب، ولا تقبلوا عِظَته، لأنكم إن فعلتم ذلك ندمتم أشدَّ الندم، وخسرتم أقبحَ الخسران، وأيةُ خسارة تلقونها إن لم تُطففوا الكيلَ وتبخسوا الميزانَ وتقطعوا الطريقَ وتأكلوا أموالَ الناس بالباطل ..

إن شعيباً يأمرُكم بالفقر والإملاق بعد أن نعمتم بالغنى والثراء، فلا تُعَرضوا أموالَكم إلى الهلاك، ولا تقِفوا موقفَ الضعفاءِ فتصيبَكم المذلةُ والهوانُ بعد أن أصبحتم سادةَ الناس وأمراءَهم ..

وما زالوا يُنفِّرون مدينَ من شعيبٍ ويبغضونهم في دينِه حتى أعرضوا عنه وكان شعيبٌ أثناء ذلك يجتهدُ في الدعاء عليهم! ، ويسألُ اللهَ أن يحكم بينه وبينهم بما شاء، فاستجاب اللهُ دعاءَ نبيه فيهم ورحِم ضعفَه بينهم وتزايدَ غضبُه عليهم، وأنزلَ وبالَه ونكالَه على الطغاة المعتدين، وأصابهم جزاءُ ظلمِهم وعنادِهم، وأرسل الله عليهم صيحةً من السماء، فزلزلت الأرضَ تحت أقدامِهم، وأحاطت الرجفةُ بديارِهم، ولم يمض قليلٌ من الوقت .. حتى أُزهقتْ أرواحُهم، وهلكتْ أجسامُهم، فإذا بيوتُهم خَربة، وأجسامُهم هامدة، ونباتُهم وأشجارُهم حصيدًا هشيمًا، وكأنما كان العذابُ يَعرف طريقه إلى العتاةِ الطغاةِ والمَرَدةِ المستبدين، فحصدهم جميعاً حصداً وأحصاهم عددا، ونجى اللهُ نبيَّه والمؤمنينَ من هولِ ذلك العذاب، ففارقوا أرضَ مدينَ سالمين، يحمدون الله على توفيقِه لهم ورضائِه عنهم وفى ذلك يقول الله تعالى:

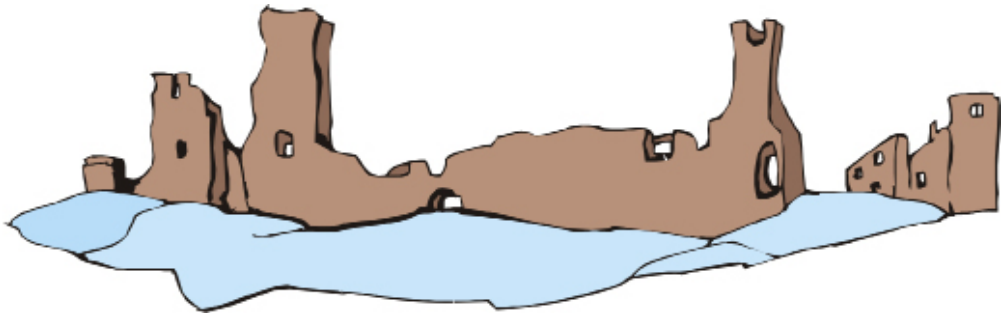

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ

[هود: ٩٤-٩٥]

وقبل أن يبرحوا هذه الديارِ وقف سيدُنا شعيبٌ على قومِه وقد عمَّهم الخراب .. وأحاط بهم الدمارُ والبوار.. ثم أطال النظرَ في أحوالهم .. فإذا جثثُهم هامدة .. وأعينُهم جامدة .. وأنفاسُهم خامدة .. لا حِسَّ فيها ولا حِراكَ بها .. فتألمت نفسُه لمنظرهم ... واستاء قلبُه لرؤيتهم ... وأثقله الحزنُ على مصيرِهم المفجع ومآلِهم البغيض .. وتمنى أن لو كانوا مؤمنين بالله فعمتهم رحمتُه .. وشملهم رضوانُه .. ولكنه شعر ببرد الرضا في قلبِه وراحةِ الطمأنينة في صدرِه .. ومُتعةِ الإنصاف في نفسه ... حينما أيقن أنه بلَّغهم دينَ اللهِ في صدق ... ونَصحَ لهم في أمانة ... ووعظَهم في إخلاص ... وخوَّفهم غضبَه إن لم يؤمنوا .. وآنذاك أَعرضَ عنهم محتقرًا لعقولِهم ... مُسفهًا لأحلامِهم ... متألِّمًا لما أصابهم من عذابٍ أليم:

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

[الأعراف: ٩٣]

المراجع:

[١] قصص الأنبياء لأحمد الشهاوى سعد

[٢] تفسير الجلالين.

[٣] كتاب تنبيه الغافلين : الشيخ الفقيه العالم الأستاذ نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى رحمه الله ورضي عنه.

[٤] بستان التعاريف للسابق ذكره .

عن جعفر بن سليمان قال:

سمعت مالك بن دينار يقول:

((وددت أن الله عز وجل أذن لي يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدة فأعلم انه قد رضي عني، ثم يقول لي: يا مالك كن تراباً)).

صفة الصفوة : ص٦٥٧

قال مالك بن دينار :

لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها يا أيها الناس النار النار.

صفة الصفوة : ص٦٥٨

قال إبراهيم بن بشَّار:

سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

((وأيُّ دين لو كان له رجال، من طلب العلم لله، كان الخمول أحب إليه من التطاول، والله ما الحياة بثقة، فيُرجى نومها، ولا المنية بعذر، فيؤمن عُذرها، ففيم التفريط والتقصيرُ والاتكالُ والإبطاء؟ قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومن طلب التوبة بالتواني، ومن العيش الباقي بالعيش الفاني)).

سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
ج٧: ص٣٩٤

إشكالية العقل في الإلحاد

بقلم الأستاذ عبد الواحد

ما هو العقل وما هي قدراته؟

في عام ١٩٣١ وبالاعتمادِ على ما يسمى Godel numbering، برهنَ **Kurt Godel** أن أدواتِ أي فرعٍ من فروع الرياضيات عاجزةٌ عن بَرهنة كلِّ ما يحتويه الفرعُ نفسُه. وحتى تستطيعَ برهنةَ كل ما يحتويه المجال (أ) لا بُد أن تخرجَ منه إلى مجال أوسع (ب) في سبيل امتلاكِك أدواتٍ جديدةٍ منها تبدأ البرهنة. لكن عند قيامك بذلك تخلقُ لنفسك -أنت فقط- أسئلةً أكبرَ في المجال الجديد، وإن أردت معالجتَها فعليك أن تخرجَ إلى مجالٍ ثالثٍ أكبرَ، وهكذا إلى ما لا نهاية. لذا ما أثبته **Godel** يُسمى أيضاً بـ Incompleteness theorem إشارةً إلى أن الكثيرَ من الحقائقِ التي يعرفُها الإنسانُ هي غيرُ مكتملةِ البرهنة، ومع ذلك يستطيعُ العقلُ أن يصلَ إليها.

آينشتاين برفقة صديقه كودِل

وهذا أكبرُ دليلٍ على أن العقل هو ظاهرةٌ تتجاوزُ المادةَ التي إن كلفناها بالبحث عن حقائقَ فليس لديها وسيلةٌ ماديةٌ للوصول إلى حقائقَ لم تكتملْ برهنتُها بعد. وكأنك تريد الوصولَ إلى النتيجة باستعمال برمجةٍ آليةٍ غيرِ مكتملة. واستُعملَ القانونُ السابقُ أيضاً كدليلٍ على أن الحاسوبَ المثاليَّ حتى إن استطاع محاكاةَ النشاطِ الدماغي .. فيستحيلُ أن يحاكيَ كلَّ جوانبِ الذكاءِ البشريِّ لأن العقلَ يستطيعُ القفزَ إلى مجالٍ معرفيٍّ أوسعَ واكتشافَ

قواعدَ أعمَّ، وهذا مستحيلٌ من الناحية البرمجية.

إنَّ قدرةَ الإنسانِ على الوصول إلى قواعدَ منطقيةٍ تتجاوزُ التطبيقاتِ الماديةِ هي من الأدلةِ على أن الجسدَ وحدَه عاجزٌ عن التفكير. فلو كان العقلُ مجردَ مادةٍ فلن تخرجَ ما تُمثلُه تفاعلاتُه من قوانينَ عن التطبيقاتِ المادية، لكن رغم ذلك نرى أن الإنسانَ يمكنه أن يكتشفَ قوانينَ متعلقةً بفضاءاتٍ أكبرَ من الفضاءِ المادي، مثالٌ على ذلك حسابُ المسافاتِ بين نقطتين في الفضاء الإقليدي. $\sqrt{(p_1-q_1)^2+(p_2-q_2)^2+\cdots+(p_n-q_n)^2}=\sqrt{\sum_{i=1}^{n}(p_i-q_i)^2}.$

حيث n تمثلُ عدد أبعادِ الكون. عندما n = ٣ يمكنُ أن يُقالَ أنه استنباطٌ من الطبيعةِ وأن الخصائصَ الفيزيائيةَ للكون تمثلتْ في الدماغ الماديِّ وساعدت الإنسانِ على التوصل لتلك القاعدة. وحتى لو سلمنا له بهذا القول الذي يثيرُ إشكالاتٍ عديدةٍ أخرى تأتي في حينها إن شاء الله، يبقى السؤالُ الأهمُّ كيف استطاع الإنسانُ تعميمَ القاعدةِ بتعميمِه لعددِ أبعادِ الكون من ٣ إلى n ؟ هذه النقلةُ التي تبدو لنا سهلةً إلى درجة البداهةِ لن تستطيعَ المادةُ القيامَ بها.

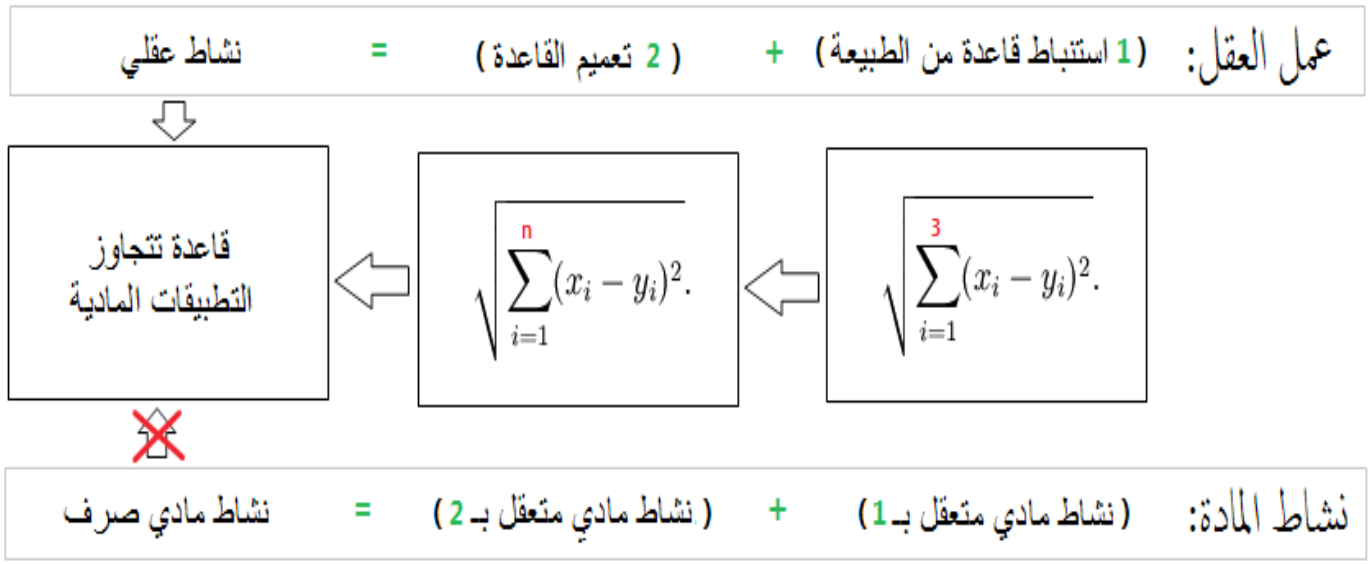

وإذا اختزلنا التفكيرَ في النشاط الماديِّ فإنه لن يُمثلَ إلا خصائصَ وقوانينَ يستحيلُ أن تتجاوزَ التطبيقاتِ المادية. فإن قيل "أن الحاسوبَ مادةٌ ومع ذلك يحوي تلك المعلومات"، فهذا لأن الإنسانَ وَضع فيه شفراتٍ ترمزُ إلى خواصَّ وقواعدَ لا تحتاجُها مادةُ الحاسوب. كذلك الكونُ ليس بحاجةٍ إلى أن يحتوي قانونًا يحكمُ المسافاتِ بين نقاطٍ تنتمي إلى فضاءٍ أكبرَ منه.

ولا يعني هذا أن جسدَ الإنسانِ لا علاقةَ له بالتفكير، فاللهُ لم يخلقْه عبثاً ومن الطبيعي أن يكون للدماغِ دَورٌ كما أن عضلة القلبِ أيضاً لها دَورٌ مهمٌّ في حِفظِ الذاكرةِ كما جاء في بحثٍ أخيرٍ من جامعة كاليفورنيا يفيدُ أن مرضى القلب Heart failure مُعَرضين أربعةَ مراتٍ أكثرَ إلى فُقدانِ الذاكرةِ مقارنةً بغيرِهم. وأن نصفَ المرضى يعانون من مشاكلَ

في الذاكرة والتعلم والتخطيط, خصوصا مرضِ Ischaemic cardiomyopathy المتعلقِ بعضلة القلب والذي له تأثيرٌ كبيرٌ على الذاكرة.

إشكاليةُ الإدراك والفهم

في بداية الثمانينياتِ من القرن الماضي احتدمَ الجدلُ حول ظاهرةِ الفهم، هل تأتي بعد معالجةِ المعلومةِ أم هي عينُ المعالجة؟ القولُ الثاني تبنّاهُ فريقٌ يَدَّعي أن الحاسوبَ ليس فقط أداةً لدراسةِ جانبٍ من سلوك العقل، بل إن الحاسوبَ المُبرمَجَ بمثاليةٍ بالغةٍ يمكن أن يقالَ عنه أنه يفهم. وكردٍ على هذا الادعاءِ ظهر في تلك الفترةِ مثلٌ جدليٌ معروفٌ باسم الغرفةِ الصينية The Chinese room argument، يقول صاحبُ هذا المثل **John Searle** أُستاذ فلسفةِ اللغةِ والعقل:

> أن بالإمكانِ تقليدُ كلِّ تفاصيلِ عملِ العقلِ دون أن يتحققَ للمُقلدِ أيُّ فهمٍ لنتيجة ما يفعل. وذلك بأن تحبسَ شخصًا في غرفةٍ مغلقةٍ وتعطيه كتابًا فيه تعاليمٌ تُشكِّلُ البرنامجَ الرقميَّ الذي يعالجُ الحروفَ الصينيةَ تمامًا كأيِّ برنامجٍ من برامج الذكاءِ الصناعي الذي يُستعمل في الروبوت للتفاعل لغوياً مع الإنسان، مع وجودِ فارقٍ مهمٍّ وهو استعمالُ عقلِ الإنسانِ "كأداةٍ للمعالجة" بدلَ الحاسوب. تُعطى لذلك الشخصِ ورقةً فيها الحروف الصينيةُ ويُطلب منه أن يطبقَ البرنامجَ الرقميَّ على ما جاء في الورقة ويكتبَ النتيجةَ ثم يعيدُها إليهم. بهذه الطريقةِ يمكنُه أن يتحاورَ مع شخصٍ صينيٍّ خارجَ الغرفةِ دون أن يفهمَ كلمةً واحدةً ولا حتى حرفًا واحدًا من اللغة الصينيةِ رغم أن عقلَه هو الذي قام بالمعالجة الفعليةِ للمعلومات.

ولأنه ضربَ الملاحدةَ في مقتل وأبطلَ اختزالهم لظاهرة الفهم في المعالجة المادية للمعلومة، تعَرضَ هذا المثلُ لعدة انتقاداتٍ من أهمِّها:

- أن ذلك الكتابَ ليس جزءاً من عقلِ الرجل .. فرُدّ على الاعتراضِ أنه في حال حِفظِه للرموز الرقميةِ والمعادلاتِ الموجودةِ في ذلك الكتابِ سيصبحُ جزءاً منه، وسيستمرُ في اتباعa نفسِ التعاليمِ وإعادةِ الأجوبةِ السليمةِ باللغةِ الصينيةِ دون أن يفهم لغويًا كلمةً واحدة.

- الاعتراضُ الثاني: يقول **dale jaquette** ١٩٩٠ (المثلُ يَفترضُ أن تَعَلُّمَ الرجلِ كيفيةَ استعمالِ الكتابِ لن يجعلَه يفهمُ اللغةَ الصينية).
الرد: تعلُّمُ الرجلِ اللغةَ الصينيةَ من خلالِ هذه العمليةِ يحتاجُ إلى رغبةٍ وإلى وقتٍ ليفكَّ الرموزَ التي يحفظُها، والمثلُ لا يريدُ إثباتَ استحالةِ ذلك بل يكفيه عملُ الرجلِ لمدة يومٍ واحدٍ فقط حتى يُثبتَ أنه قام بالنشاطِ الدماغيِّ الكافي ليردَّ بطريقةٍ سليمةٍ دون أن يتحقق له الفهم.

- الاعتراضُ الثالث، يقول **james moor** ١٩٨٨ (الإشكالُ يكمن في قدراتِ الرجل على معالجةِ عددٍ كبيرٍ من

هل المعالجة المادية للمعلومة هي عين الفهم ؟

الغرفة كوحدة متكاملة قامت بكل ما ينبغي - مادياً - لإعادة الأجوبة السليمة دون أن تتحقق ظاهرة الفهم في تلك الغرفة .

الحساباتِ علاوةً على الآثارِ النفسيةِ التي يمكنُ أن تؤثرَ في فَهمه)،
الرد: يمكنُ بكل بساطةٍ تكليفُ الرجلِ بمهامٍّ أقلَّ وتزويدُه برنامجاً قصيراً سهلاً لم يكن متوفراً قبل عشرين سنة من زمن هذا الاعتراض.

- الاعتراضُ الرابع (هناك بعضُ الأسئلةِ التي لن يستطيعَ الرجلُ التعاملَ معها كالسؤالِ عن الساعة).

الرد: عجْزُ الرجلِ عن التعاملِ مع بعضِ الأسئلةِ لا يُبررُ عدم فهمِه للأسئلةِ التي استطاع فعلاً التعاملَ معها.

- الاعتراضُ الخامس: يقول **R.J.Nelson** ١٩٨٩ (الغرفةُ الصينيةُ لا تستطيعُ التعاملَ مع كل القدراتِ الفكريةِ للإنسان، ومتى استطاعت تصبحُ قادرةً على الفهم).
الرد: وكأنه يقولُ متى استطعنا جَعْلَ الغرفة تفهمُ فإنها ستفهم!

- الاعتراضُ السادس، يقول **Jonathan Cohen** ١٩٨٦ (يمكنُ أن نختارَ بعضَ الأسئلةِ المبسطةِ التي يسهلُ فكُّ شفرتِها مثل تكرارِ أسئلةٍ من نوعيةِ ١ + ١ = ٢) .

الرد: نعم هذا ممكنٌ لكنه إن فُهِمَ فليس فقط بسبب ما قام به من معالجةٍ طبقا للكتابِ بل بسببِ رغبتِه بَذلَ مجهودٍ إضافيٍّ لفكِّ الشفرة. لكنه يستطيعُ إعادةَ الأجوبةِ السليمةِ دون القيامِ بذلك الجهدِ الإضافي، وهذا يكفي لإثباتِ أن المعالجةَ الكافيةَ للردِّ السليمِ لا تكفي للفهم. بعبارةٍ أخرى المثلُ يثبت أن المعالجةَ الدماغيةَ للمعلومةِ ليست هي عينُ الفهم!

الكون في خدمة إدراكنا

يمكنُ أن نعكس المثلَ السابقَ بأن نحاولَ إفهامَ طفلٍ صينيٍّ تعاليمَ ذلك البرنامجِ المعقد، بالطبعِ لن يفهمَ حتى وإن تُرجِمَ الكتابُ إلى لغتِه ما دام ذكاؤه لم يصلْ إلى المستوى المطلوب. وهنا تأتي المفارقة:

١- الطفلُ ليس لديه أيةُ فكرةٍ كيف يعالجُ عقلُه الكلامَ الصيني .. لكنه يفهمُ نتيجةَ تلك المعالجة.

٢- أما الرجلُ الأجنبيُّ فقد فهم كيفيةَ معالجةِ عقلِه للكلامِ الصيني .. لكنه لا يفهمُ نتيجةَ تلك المعالجة.

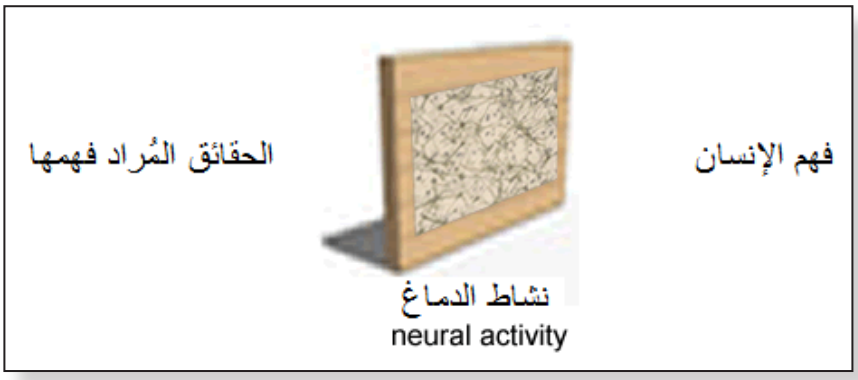

إذا كان الإدراكُ والفهمُ هما من الظواهرِ الماديةِ البحتة، إذاً يحقُّ لنا القولُ أن بين (الفهمِ) و (الحقائقِ) هناك جدارٌ من النشاطِ الدماغيِّ الذي لا نفهمُ قوانينَه المعقدةَ هو نفسُه الذي يقدمُ للإدراك نتيجةً

مختصرةً ومفهومة. مثلاً الطفلُ العربيُّ الذي يتكلمُ اللغةَ بالسليقةِ ولا يدري ما هو الإعرابُ، هو طفلٌ يُتقن عقلُه قواعدَ اللغةِ العربيةِ كاملةً دون أن تصلَ تلك المعارفُ إلى إدراكه. بل حتى ما ندركُه من بَرهنةٍ منطقيةٍ لا تشكلُ إلا جزءاً بسيطًا من الاستدلالِ الحقيقيِّ الذي قام به العقلُ بالفعل، وهذا يُثبته Godel's Theorem. بل حتى الجملةُ البديهية (١ أصغر من ٢) هي بالنسبة لإدراكِنا تُعتبرُ محطةً "لا عمل" ما دامت لا تحتاجُ إلى دليل، لكن خَلفَ ستارِ الإدراكِ تم بالفعل نشاطٌ عقليٌّ معقد. مثلٌ آخر، أنت تدركُ جيداً ما معنى أن تضعَ يدَك على رأسك ويمكنُك أن تُغمض عينيك وتقومَ بتلك العمليةِ بكل أريحية، لكن إذا طُلب منك وصْفَ الحساباتِ والقوانينِ التي بها نفذ عقلُك أوامرَك فالجوابُ المتوقعُ أنه لا فكرةَ لديك. والأمرُ يشملُ بالطبعِ ما يقومُ به العقلُ من إدارةٍ لأعضاءِ الجسد وخلاياه دون استشارتِنا أو حتى إخبارِنا.

ما سبق هو دليلٌ على أن ما يدركُه الإنسانُ من عملِ العقلِ يمثلُ قطرةً في بحرِ مقارنةٍ بما يقومُ به حقا. فالأمر يشبهُ جيشًا من كبارِ المتخصصينَ في كل المجالاتِ وبكل أجهزتِهم كُلّفوا خدمة طفل!، يُلخصوا له ما يحتاجُه من معلوماتٍ بأبسطِ الصِّيغ حتى يستطيعَ فهمُها ثم ينتظروا أوامرَه -غَيرَ الناضجةِ في أغلبِ الأحيان- لينفذوها. هذا النظامُ الذي يخدمُنا والذي يدلُّ أن وراءَه قصدٌ يستحيلُ أن يَظهرَ بفِعلِ الانتخابِ غيرِ المُوجه بمنطقِ البقاءِ للأصلح.

الفريق يفهم .. أفراده لا يفهمون

يقول **Marvin Minsky** في كتابه **The Society of Mind** الصفحة ٣٠٨:

«أن عملَ العقلِ هو مجموعةٌ من النشاطاتِ المحليةِ على مستوى شبكاتٍ صغيرةٍ متفرقةٍ عبر الشبكةِ العصبيةِ ككل. كلُّ نشاطٍ جزئيٍّ يلعبُ دَورَ عميلٍ لا يستطيعُ أن "يفكر" في حد ذاتِه، لكن مجموعَ العملاءِ عند تآلفِهم يظهرُ الذكاءُ الحقيقي».

والسؤال الذي يطرحُ نفسَه:

١- هل مجموعُ نشاطِ العملاءِ هو الذي أظهر الذكاءَ والفهم؟

٢- أم أن هناك قوةً أدارت المجموعةَ بحيث

يُنسبُ ذكاءُ عملِها إلى مديرِها وليس لأفرادِها؟

القولُ الأول يمكن دحضُه بالمثل السابق (الغرفة الصينية) حيث تحققَ ذلك التآلفُ في دماغ الرجلِ دون أن يتحققَ له الفهم. والقولُ أن الأمرَ يشبهُ حالةَ أفرادٍ ضعفاءَ لكن مجموعَ قدراتِهم كبيرة.. هو قولٌ مغلوطٌ لأن الذكاء ليس قيمةً تخضعُ للجمع والطرح. (عشرون طفلاً يستطيعون -مجتمعين- دفعَ ما يستطيعُه الرجلُ البالغُ القوي) لكن (أطفالَ العالمِ مجتمعين لا يستطيعون حلَّ معادلةٍ رياضيةٍ يحلُّها الأستاذُ الجامعي). وكذلك مجموعُ العملاءِ كما سماهم **Marvin** لا يتمتعون بالذكاءِ، والمفترضُ أن لا يظهرَ الذكاءُ دون وجودِ مديرٍ يحددُ هدفَ النشاط، ويُنسقُ بين أفرادِ تلك المجموعة.

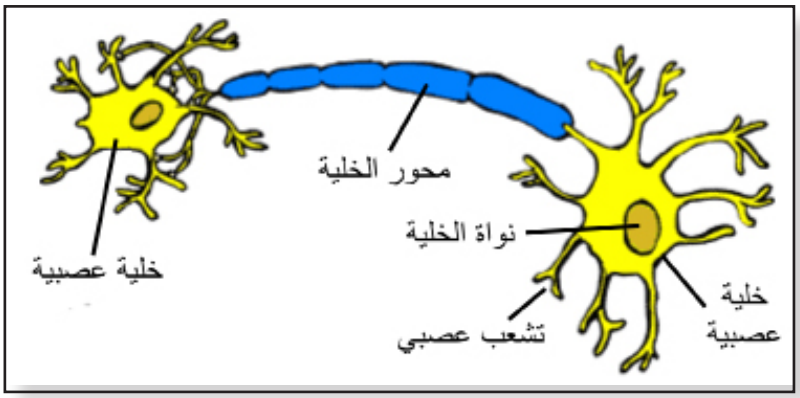

فإذا كانت الخليةُ العصبيةُ نفسُها مكونةً من أجزاء، فمن الذي يحددُ لها مهامَّ كلِّ جزءٍ بما يتوافقُ مع الهدف الكليِّ للجهازِ العصبي. الأمرُ لا يختلفُ كثيراً عن التنسيقِ بين عددٍ كبيرٍ من برامج الحاسوبِ الصغيرةِ دون وجودِ برنامجٍ أعمَّ من خلالِه يتمُّ تسييرُ فريقِ العمل.. وقبل ذلك لا بُد "للبرنامج المدير" أن يحددَ الهدفَ الكليَّ المرادَ إنجازُه قبل تكليفِ كل طرفٍ بمهامِّه الجزئية. عاملُ تحديد الهدفِ أو القصدِ هو أمرٌ جوهريٌّ حتى من المنظورِ الماديِّ البحت، فالذكاءُ لا معنى له إلا بتحققِ marr's three levels of analysis.

١- المستوى الأول بكل بساطةٍ هو تحديد الهدف.

٢- المستوى الثاني: كل ما يتعلقُ بالمعالجة Representation and algorithm .

٣- المستوى الثالث: يَكمُن في الجهاز أو الوسيلة التي تُستعملُ في تنفيذ المعالجة على أرض الواقع.

إذاً لا يوجدْ مفهومٌ للذكاء إلا بوجود قوةٍ قادرةٍ على تحديد الهدف مسبقا، مثلاً إذا طُلب منك في الامتحان حلَّ مسألةٍ فأنت تفهم الطلبَ وتحددُ الهدفَ في أول دقيقةٍ لكن ربما تحتاجُ إلى ساعةٍ لإتمام المهمة وربما تفشل.

وهنا يأتي السؤال: ما هي الجهةُ التي تدُير وتحددُ الهدفَ الكليَّ لعملِ كلِّ نشاطٍ جزئيٍّ في الدماغ؟ إذا كان المديرُ عبارةً عن نشاطٍ ماديٍّ آخر.. فيمكن إذاً إعادةُ السؤالِ مرةً أخرى: ما الذي يديرُ مكوناتِ المديرِ ذاتِه؟ وتكرارُ نفسِ الطرحِ الجدليِّ إلى ما لا نهايةَ لن يوصلَك إلى جواب، بل سيوصلُك إلى أصغرِ جزيءٍ في المادة الذي لا يمكن أن ننسبَ له الذكاءَ والقدرةَ على إدارة فريقٍ من الجزيئاتِ بعد تحديدِه هدفَ عملِ الفريقِ مسبقاً.

كيف ظهرت ظاهرة الذكاء في الكون؟

قبل ظهورِ ذكاءِ الكائناتِ الحيةِ في كوننا، إن كان هناك هدفٌ في الكون الماديِّ فهو لا يخرجُ عن الهدف الفيزيائي، وبغض النظرِ عن مفهومِ "القصد" في الإلحادِ فإن القصدَ الفيزيائيَّ لا يرقى إلى قدرةِ الكائنِ الذكيِّ على تحديدِ الهدفِ مسبقا، وهذا دليلٌ على استحالةِ ظهورِ الذكاءِ صدفةً بفعلِ الطفراتِ الداروينية.

حتى إن سلمنا جدلاً ببداهةِ وجودِ القوانينِ الفيزيائية، فإن تَصادفَها بما يحققُ ظهورَ الحياة ليس أمراً حتمياً. كذلك تصادفُ الظواهرِ البيولوجيةِ بما يحققُ ظهورَ الذكاءِ ليس حتميا. ولتخفيفِ وقْعِ الدعوى العريضةِ التي تبناها التطوريون لجأوا إلى استعمالِ مصطلحِ "الطفرات" وأهمُّ ما يميزُها أنها غيرُ موجهةٍ بل هي الصدفةُ البحتةُ التي لم يكن لها هدفٌ مسبقٌ سعت إليه.. ومع ذلك يدعي الملحدُ (أن الظاهرةَ غيرَ المُوجَّهَة) تتحولُ إلى (ظاهرةٍ موجَّهَةٍ ومُوَجِّهةً من تلقاءِ نفسِها). فكيف إذاً لتطورٍ غيرِ مُوجَّهٍ أن يُنتجَ كائناً قادراً على تحديد الأهدافِ وإصدارِ التوجيهات؟

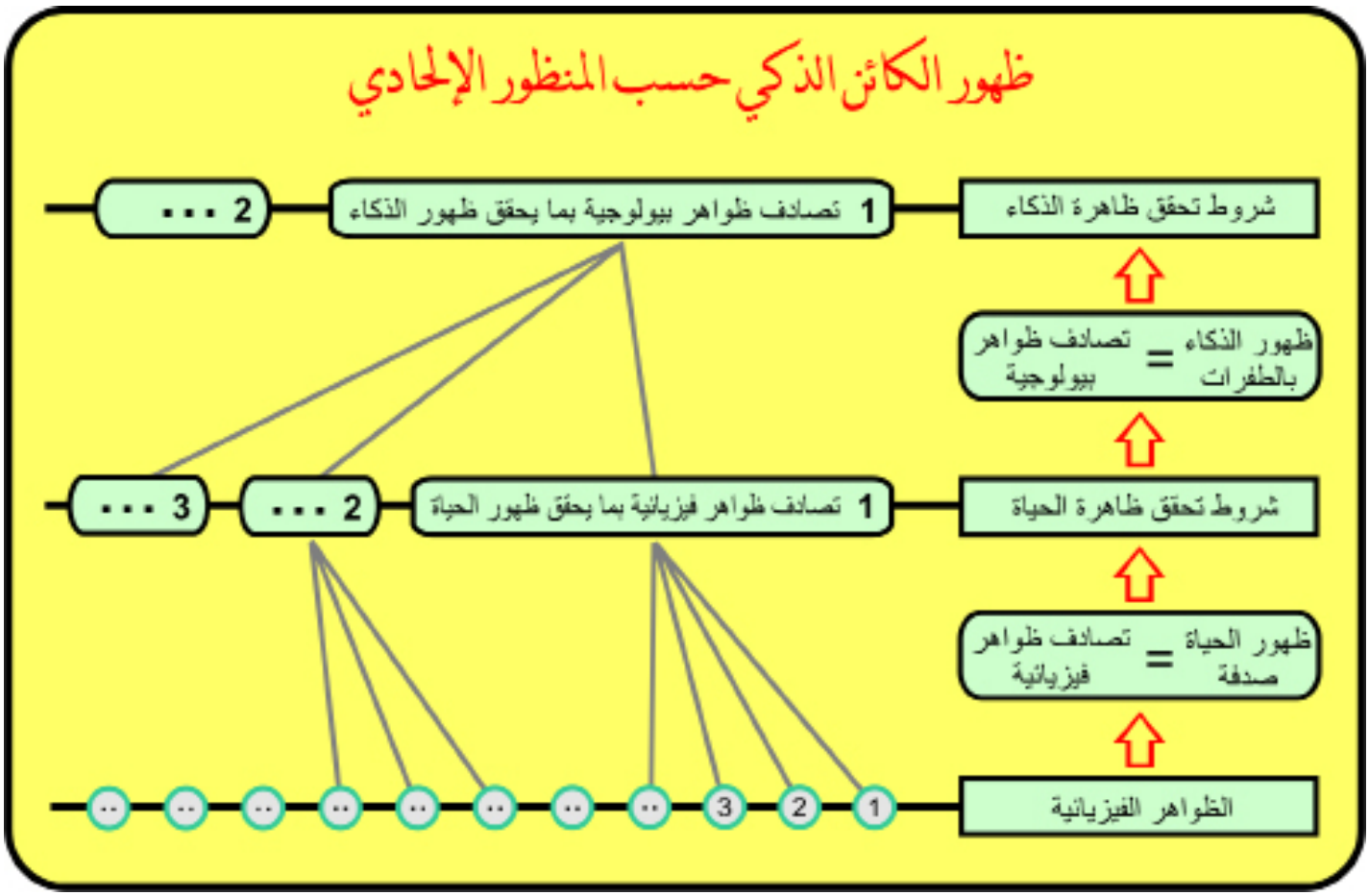

حسب الرسمِ السابقِ يمكن تمثيلُ ظاهرةِ الذكاءِ على أنها مجموعةٌ من الظواهر الفيزيائيةِ حيث لا معنى للقصد المسبقِ ما دام كلُّ حدثٍ هو نتيجةٌ لظروفِه الآنيةِ التي وُجد فيها.

وهنا تأتي المفارقة المستحيلة:

(ظاهرةُ الذكاءِ التي لها قصدٌ يسبقُ الفعل) = مجموعة (ظواهرَ فيزيائيةً قصدُها لا يسبق فعلَها).

وحتى لا يدعي معاندٌ أن نيةَ الإنسان المسبقةِ ما هي إلا وهمٌ.. أُذكره أنه في أولِ دقيقةٍ ينوي حلَّ المسألةِ في الامتحان، أما نتيجةُ نيته فتأتي بعد وقتٍ طويل.

حتى الخطأُ يستحيل أن يظهر في عالم مادي

خيرُ دليلٍ على الفرقِ بين القصدِ والتنفيذِ أن الإنسانَ في أغلبِ الأحيانِ يفشلُ في تحقيق رغباتِه، في المقابل إن جاز القولُ أن للمادة قصدٌ، فهو قصدٌ آنيٌّ يعكسُ الحدثَ المتحققَ نفسَه، ولذلك لا معنى لأي خطإٍ ماديٍّ ما دام لا يوجدُ مجالٌ لأيةِ مقارنةٍ بين القصد والتنفيذ. فدماغُ الإنسانِ بما فيه من نشاطٍ عصبيٍّ لا يخطئُ ماديا بل يتبعُ كلَّ القوانينِ الفيزيائيةِ الصحيحةِ ولا يتمردْ على سننِها .. ومع ذلك يمكنُ أن يصدرَ من الإنسانِ الخطأ.

وهذا دليلٌ قاطعٌ على أن المسئولَ عن الخطإِ وأيضاً المرجع الذي به حكمنا على خطئه ليس تفاعلاتٍ ولا قوانينَ مادية. فإن ادعى الملحدُ أن ما يحتكمُ إليه الإنسانُ من قيمٍ وأخلاق "ما هي إلا قوانينٌ وضعيةٌ نتجت عن حالاتٍ نفسيةٍ وعاداتٍ وتقاليد". نجيبُه: لكنك لا تؤمنُ أنها حالةً نفسيةً للروح بل هي حالةٌ ماديةٌ لا يمكنُها أن تُخَطِّئ حالةً ماديةً أخرى، فحتى تناطحُ الذراتِ هو تصرفٌ لا خطأ فيه ما دام موافقًا للقوانين الفيزيائيةِ الصحيحة.

من أكثر القواعد المنطقيةِ بداهةً أن (عطف الصحيح على الصحيح لا يُنتجُ إلا صحيحاً). وبما أن تصرفَ كلِّ ذرةٍ هو تصرفٌ صحيحٌ فاتحادُ سلوكِ كلِّ ذراتِ الكونِ لا يمكنُه أن يُنتجَ خطأً واحداً. ولذلك إذا ظهرتْ في الكون مفاهيمُ للخطإِ فهذا يعني أن المسئولَ عنها يستحيلُ أن يكون مادة. والأمرُ لا يقتصرُ على الأخلاقياتِ والقيمِ فقط، بل حتى الخطأُ المنطقيُّ الذي يمكنُ أن يسقطَ فيه العقلُ يستحيلُ أن يكون سببُه آليةً ماديةً بحتةً لا تعرف الخطأَ الفيزيائي. فإن قيل ما بالُ القوانينِ الأخرى؟ الجواب: في عالمِ الإلحاد، كلُّ القوانينِ لبناتُها الأصليةُ لا بد أن تتكون من قوانينَ فيزيائية. إذاً متى تعثرت أخلاقيا أو حتى منطقياً فاعلم أن خطأك هذا هو دليلٌ حيٌّ على بطلانِ الفكر الإلحادي، واعلم أنك ما تمتعتَ بالقدرة على مخالفةِ بعضِ القوانينِ إلا لغاياتٍ من أهمِّها التكليف.

التصميمُ الذكي

كلُّ نشاطٍ يدل على ذكاءٍ هو بالضرورةِ انعكاسٌ للقصد المسبق خصوصاً وللذكاء عموماً والمتمثلِ في تصميمِ الجهازِ الذي جرت فيه الأحداث. مثلاً لو صممتَ قنواتٍ بطريقةٍ ذكيةٍ ثم تركتَ المياهَ تنسابُ من خلالِها فهذا لا يعني أن مجموعَ المياهِ تتمتعُ بالذكاءِ وبالإرادة المسبقة بل يُفترض أن تُنسبَ تلك الإرادة لمصممِ القنواتِ وليس إلى المياهِ نفسِها. فإن كان من وراء النتيجة قصدٌ فهو قصدُ المسبب بالضرورة. كذلك بالنسبة للنشاطِ العصبي في الدماغِ إذا صدر منه ما يدلُّ على ذكاءٍ وقصدٍ فهذا لأن مُصور الشبكةِ العصبيةِ أراد ذلك. فإن قيل أين هي إذاً إرادة الإنسان إذا كانت الإشارات المُنتقلة عبرَ الشبكةِ هي من المنظورِ الماديِّ نتيجةٌ تلقائيةٌ لذلك التصميم وطبيعته؟ هذا سؤال معكوس لان الإرادة الإنسانية لا تحتاج إلى دليل. ومن ينكر شهادته على نفسه أن له القدرة على تحديد الأهداف مسبقاً, هو في الحقيقة ينكر المستوى الأول من مستويات marr للتفكير - أي تحديد الهدف- الذي بدونه لا يمكن أن ننسب للفعل الإنساني صفة الذكاء, وسينكر أيضاً كل دليل عقلي يصله لأنه في النهاية يحتاج أن يقبل شهادته على نفسه انه أدرك الدليل كما أدرك إرادته من قبل. إذاً السؤال الذي يجب طرحه هو عن مصدر إرادة الإنسان وقصده المسبق إذا كانا في توافق مع بعض ما يحدث من نشاطات مادية تدل على الذكاء, فهذا يعني أن إبداع تصميم الجسد يكمن أيضاً في تأهيل المادة للخضوع لإرادة بشرية ليست مجرد تفاعلات تلقائية عاجزة على تحديد الأهداف مسبقاً..

من طرائفِ التطوريين أنهم لا يعترفون بالطائرِ كتصميمٍ ذكي (أي أن مصممَه ذكي) لكنهم يعترفون أن عُشه الذي بناه هو تصميمٌ ذكي. وهذا أمرٌ مستحيلٌ كاستحالةِ صدورِ فعلٍ ذكيٍ من حاسوبٍ لا يمثلُ في ذاتِه أيَّ تصميمٍ يحتاج إلى عقولٍ مبدعةٍ سهرتْ على تصنيعِه. يردُّ الملحدُ على ذلك بقولِه: أن الذكاءَ المتمثلَ في عشِّ الطائرِ كالمتمثلِ في نجمةِ الثلجِ التي تتكونُ في النافذة. وهذا صحيحٌ بل ربما تلك النجمةُ تُظهر إبداعاً أكبر لكن السؤال المهم والمحرج لماذا اختار الملحد ذلك المثلَ بالتحديد؟ لأن له إدراكٌ به يستطيعُ رصْدَ الظواهرِ الذكية, وهكذا بمجردِ استشهادِه بنجمةِ الثلجِ لتمييعِ مفهومِ الذكاء, اعترفَ ومن حيث لا يدري أن اختيارَه هذا بالتحديدَ وراءَه ذكاءٌ، بعبارة أخرى : أراد الملحد إنكار التصميم الذكي للنجمة .. فاعترف أن كيانه نفسه هو تصميم ذكي.

الذاكرةُ وإشكاليةُ التشفير

عقلُ الإنسانِ يتمتعُ بثلاثة أنواعٍ معروفةٍ من الذاكرةِ أهمها بالنسبة للتفكير هي (الذاكرةُ العاملة) Working memory والتي تحتوي على المعلوماتِ التي يحتاجُها الإنسانُ عند حلِّه لمعادلةٍ مثلاً.. لكن هذه الذاكرةُ

لا يمكنها أن تحتفظَ بكمٍّ كبيرٍ من المعلومات في نفس الوقت، لذلك يحتاجُ الباحثُ إلى تقسيم عملِه العقليِّ إلى أجزاء، بحيث يتعاملُ كلُّ جزءٍ مع كمٍّ من المعلوماتِ يتوافقُ وقدراتِ (الذاكرةِ العاملة). ثم يسجلُ الباحثُ نتيجةَ كلِّ مرحلةٍ قبل أن ينتقلَ إلى المرحلةِ الأخرى وكأنه يستعملُ القلمَ ليتعلمَ ما لم يكن يعلم.

أما في كونٍ ماديٍّ ليس له مدبِّر، ذاكرةُ المادةِ لا تخرجُ عما تتمتعُ به من صفاتٍ ذاتية. فما حاجةُ الذرةِ الصغيرةِ أو النجمِ البعيدِ إلى شفراتٍ في شكل مِدادٍ على ورقٍ في كتابٍ يحتوي على معلوماتٍ فيزيائية؟ وما حاجةُ ذلك المدادُ إلى ما يرمزُ إليه من معانٍ؟ فلا خصائصَ النجمِ تحتاجُ إلى المدادِ وشكلِه المرسومِ على الورق، ولا الرسمُ في حاجةٍ إلى غيره. إذاً هي حاجةٌ بشريةٌ، لكن إذا نظرنا إلى جسدِ الإنسانِ على أنه مجموعةٌ من الذراتِ والجزيئاتِ الأوليةِ فحينَها لن تخرجَ حاجةُ ذلك الجسدِ عن حاجةِ مجموعِ الجزيئاتِ المكونةِ له. وبما أن الجزيء لا حاجةَ له إلى ذاكرة تحفظُ ما ليس من خصائصِه، إذاً لا حاجةَ لمجموعةِ الجزيئاتِ المكونةِ للجسدِ إلى ذاكرة تحفظُ ما ليس من خصائصِها. (**النتيجة ١**)

فإن قيل بل الجسدُ بحاجة إلى تذكُّر خصائصِ غيرِه حتى يتمكنَ ككائنٍ حيٍّ من الأكلِ والشربِ والحفاظِ على حياتِه. هذا صحيحٌ لكن حتى يستطيعَ القيامَ بذلك لا بُد من امتلاكِه قوةً غيرَ ماديةٍ تعطيه أكثرَ مما أعطته له المادةُ في (النتيجة ١).. حتى من منظورِ الانتخابِ الطبيعي فإن الطفراتِ لا تُكسِب المادةَ خواصَّ من خارج الكونِ بل هي نتيجةُ تآلفِ خواصَّ ماديةً كانت موجودةً من قبلُ وهي التي تسببت في ظهورِ تلك الطفرات. وإذا كانت الخواصُّ القديمةُ لا تحتاجُ إلى ذاكرةٍ فمهما ألَّفت بينها فلن تحصلَ تلقائياً على خاصيةٍ تحتاجُ إلى ذاكرة.. لا بد من إضافةِ خاصيةٍ جديدةٍ تفي بمتطلبات هدفٍ جديدٍ اسمُه "الحياة".

إنَّ ذاكرةَ الإنسانِ يمكنُها أن تخزنَ وتعالجَ المعلوماتِ المتعلقةِ بخصائصِ موادٍّ وظواهرَ أخرى دون الحاجةِ إلى إخضاعِ مادةِ المخ لتلك الظواهر. فالدماغُ لم يخضعْ أبدا لدرجة حرارةِ باطنِ الشمسِ ولا حتى سطحِها، بل كلُّ ما وصله هو بعضُ الأشعةِ التي اخترقت عينَه. ومع ذلك يستطيعُ العقلُ استنتاجَ خاصيةٍ لم تصلْه مادياً. ربما يبدو الأمرُ روتينيا للبعض لكن تلك البداهةُ تتبخرُ بمجرد طرحِ السؤالِ حول القانونِ الذي به نستنتجُ ونحللُ خواصًا لا نخضعُ لها. إذا ظهرت في الدماغ قدرةٌ على الاستنتاجِ السليم، فلا بد أن تتبعَ قانوناً سليما ظهر هو نفسُه في الدماغ. لكن في عالمٍ غيرِ مُوَجّهٍ وحسب (النتيجة ١) لا وجود لقانونٍ في محيطٍ لم تتسببْ صفاتُه في إظهارِه. إذاً كلُّ "قانون استنتاج" ظهر في الدماغ بسبب الطفراتِ غيرِ الموجهة.. لا يمكنُه أن يُمثلَ إلا خواصَّ الدماغِ التي تسببت في ظهورِه، وبالتالي لا يمكنُ أن يصل بنا الدماغُ إلى خواصَّ غريبةً عنه.

كيف يستطيعُ العقلُ أن يتجاوزَ العائقَ الماديَّ في (النتيجة ١) ؟ بدلَ أن ينقلَ الشمسَ كما هي إلى دماغِه ليخضعَ لخواصِّها.. نقلَ فقط شفراتٍ تشيرُ إلى تلك الخواص، وهذا يعني ضرورةَ وجودِ أداةِ ترجمةٍ تُحولُ الواقعَ الخارجيَّ إلى لغة شفراتٍ بغض النظر عن هيئتِها. وهذا يثيرُ إشكاليةً أكبرَ ويطرحُ السؤالَ عن تصادفِ الحاجات التالية:

١- ظهورُ لغةٍ -لا تحتاجها المادة - تُترجمُ الواقعَ إلى شفرات.

٢- ظهورُ برنامجِ معالجةٍ للمعلومات متوافقٍ مع لغة التشفير.

٣- ظهورُ أداةٍ ماديةٍ مصممةٍ بما يتناسبُ وحاجاتِ برنامج المعالجة.

يستحيلُ أن تتم ظاهرةُ التفكيرِ دون ظهورِ تلك العواملِ الثلاثة في نفس الوقت، فإذا أُلغيت عاملاً واحدا ينهارُ البنيان كله.

ما حاجةُ المادةِ إلى ذكاء؟

كما سبق ذكرُه فإن كان للمادة "حاجة" فهي لن تخرجَ عن خواصِّها الذاتيةِ وخواصِّ محيطِها، هذا لأن جزيئاتِ المادةِ ليس لها إدراكٌ ورغباتٌ حتى تطمحَ إلى خواصَّ وأحداثٍ أخرى غيرَ التي تخضعُ لها بالفعل. ومن كان هذا حالُه فهو لا يحتاجُ إلى تدوينِ واقعِه أو الواقعِ مِن حولِه.. فالضوءُ مثلاً لا يحتاجُ إلى تسجيل طاقتِه أو سرعتِه وذلك بابتكار لغةِ تشفيرٍ تحول الواقعَ إلى رسوماتٍ غريبةٍ نسميها نحن "الأرقام". وبما أنها حاجةٌ غيرُ ضروريةٍ إذاً لا يمكنُها أن تظهرَ في الطفراتِ ما دامت الطفراتُ نفسها تصادفُ أحداثاً فرضها الواقعُ بالضرورة.

هذا لأن تآلفَ الضروراتِ يستحيلُ أن يُنتجَ ما هو غيرُ ضروري، هذه قاعدةٌ رياضيةٌ لا جدال حولَها. وطبعاً من عادةِ الملحدِ تركُ القواعدِ المبرهنةِ والبحثُ عن أمثلةٍ مخادعة، فيقولُ مثلاً: "بفعلِ الأمواجِ، يمكن أن يظهرَ صدفةً رسمٌ أو قصرٌ رملي، فتظهرُ معه الحاجةُ إلى ظروفٍ تحفظُه". فأين هي المغالطةُ في هذا المثل؟ تلك الحاجةُ التي ظهرتْ هي من اقتراحِ الإنسان وليس حاجةً نابعةً من القصر الرمليِّ نفسِه. كذلك إذا ظهرتْ في الكون ظاهرةٌ بحاجةٍ إلى إدراكٍ وذاكرةٍ وذكاءٍ فتلك إذاً حاجةُ مخلوقٍ أرادها مدبرٌ للكونِ بالضرورةِ حيث إرادته لا تحكمُها الطفرات. وافتراضُ نقيضِ ذلك يعني مخالفةُ القاعدةِ المنطقيةِ السابقة.

أسلمة العلمانية

بقلم د. أحمد إدريس الطعان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميِّ وعلىآله وصحبه أجمعين وبعد :

أولاً : الإسلامُ في المنظارِ العلماني

هناك ثلةٌ من المفكرين يسعَون إلى أسلمةِ العلمانية، وذلك من أجلِ الحصولِ على مشروعيةٍ لاستيرادِها أو جوازِ عبورٍ لمرورِها، وبطاقةِ إقامةٍ لها في العقل المسلم، ولذلك تحاولُ تعريفاتُهم وتنظيراتُهم أن تردُمَ الهوة، أو على الأقل تقومُ بتمويهِها بين الإسلام والعلمانية.

فالعلمانيةُ عند **نصرِ حامد أبو زيد** ليست مُروقاً أو كفراً أو إلحاداً وإنما هي ﴿ **التأويلُ الحقيقيُّ والفهمُ العلميُّ للدين ، وليست ما يُروجُ له المبطلونَ من أنها الإلحادُ الذي يَفصلُ الدينَ عن المجتمعِ والحياة** ﴾[١]، باختصار إن العلمانيةَ عند نصرِ حامد هي التأويلُ. وسوف نجدُ أن التأويلَ يحتلُّ المساحةَ الرئيسةَ في الفكر العلماني.

وإذا كان **نصرُ حامد** يبرئُ العلمانيةَ من الإلحاد ويعتبرُها الفهمَ الحقيقيَّ للدين فإن **محمودَ أمينُ العالم** يذهبُ إلى أكثرَ من ذلك عندما يأملُ أن تكونَ العلمانيةَ منطلقاً صالحاً للتجديدِ الديني نفسِه بما يتلاءمُ ومستجداتِ الواقع. ذلك لأن العلمانيةَ عنده هي: ﴿ رؤيةٌ وسلوكُ منهج. وهذه الرؤيةُ تحملُ الملامحَ الجوهريةَ لإنسانيةِ الإنسان، وتُعبرُ عن طموحِه "الثنائي" الروحي والمادي للسيطرةِ على جميع المعوقاتِ التي تقف في طريق تقدُّمِه وسعادتِه وازدهارِه ﴾[٢].

ولكن إذا كان كل المُنَظرينَ للعلمانيةِ إسلاميين وعلمانيين يتفقون مع **أمينِ العالم** على أن العلمانيةَ تُعبر عن الطموحِ الماديِّ للإنسانِ وتتطرفُ في هذا إلى حدِّ التأليهِ للمادة، فإنه لا أحدَ يتفقُ معه على أن العلمانيةَ تُعبرُ عن الطموحِ الروحيِّ للإنسان، فالعلمانيةُ لا تعترفُ بالروحِ أصلاً، وإذا اعترفت بها فإنها تُحولها إلى مادةٍ وتتعاملُ معها

على هذا الأساس، إن العلمانيةَ تُهْدِر الجانبَ الروحيَّ في الإنسان، وتُهدرُ المقاصدَ الروحيةَ له، وتُلغي كلَّ ما تطمحُ الروحُ إليه من خلودٍ وعبوديةٍ وسعادةٍ دائمة.

أما **د. حسن حنفي** فالعلمانيةُ عنده مصطلحٌ وافد، وبما أنه كذلك فإن الرفضَ هو ما سيواجَه به، فلماذا لا ندْعوا إلى الإسلامِ الحقيقي، والإسلامُ الحقيقيُّ هو إسلامٌ علمانيٌّ في جوهرِه لا حاجة له إلى علمانيةٍ زائدةٍ عليه مستمدةٍ من الخارج [٣].

نلاحظُ أن **حسن حنفي** لا يرفضُ مضمونَ العلمانية، وإنما يرفضُ المصطلحَ لأنه بضاعةُ المستعمر، ولكن المضمونَ أيضاً بضاعةُ المستعمر، ولا يكفي أن نُلبسَه لباساً إسلامياً، أو نعطيَه صبغةً ذاتية. إن الثقافةَ الغازيةَ يرادُ لها أن تتمكنَ في ذواتِنا ولكن من أجلِ التخلصِ من عقدةِ النقصِ نضفي عليها غطاءً إسلامياً، وتبريراً فكرانياً، ونطلقُ على الإسلامِ بأنه دينٌ علمانيٌّ في جوهره.

إنها نفسُ النتيجةِ التي يصلُ إليها **د.عابد الجابري** فالمصطلحُ مثقلٌ بالأفكار والمعاني الغربيةِ الوافدة، والتي تدفعُ إلى ردةِ فعلٍ لدى الإسلاميينَ تجعلُهم يسارعون إلى رفضِه، والمصطلحُ البديلُ لديه هو: الديمقراطيةُ والعقلانية «**فالديمقراطيةُ تعني حفظُ الحقوق، حقوقُ الأفرادِ والجماعات، والعقلانيةُ تعني الصدورُ في الممارسة والسياسةِ عن العقل ومعاييره المنطقيةِ والأخلاقيةِ وليس عن الهوى والتعصب وتقلباتِ المزاج**» ثم يضيفُ الجابري: «**بأنه لا الديمقراطيةُ ولا العقلانيةُ تعنيان بصورةٍ من الصور استبعادَ الإسلام**»[٤]. فهو أيضاً لا يرفضُ مضمونَ العلمانيةِ وإنما يرفضُ الشعارَ لأنه شعارٌ مزيفٌ ملتبسٌ يجب استبعادُه من قاموس الفكرِ العربي[٥]. والعقلانيةُ الجابريةُ باعترافِه هي على النقيضِ من سيرةِ السلف الصالحِ لأن عقلانيتَهم تقوم على مبدإ أن الدنيا قنطرةُ الآخرةِ وهو منطقٌ قد أدى وظيفتَه يوم كان العصرُ عصرَ إيمانٍ فقط، وليس عصرَ علمٍ وتقنيةٍ وأيديولوجيا وهو ما يعني إذنْ أن الإيمانَ يتناقضُ مع العلمِ والتقنية[٦].

ولكن يُقالُ هنا بأن الديمقراطيةَ والعقلانيةَ "المطلقةَ" كلاهما مصطلحانِ وافدانِ والخلافُ بشأنِهما بين الإسلاميينَ والعلمانيينَ لا يقلُّ عن الخلاف بشأن العلمانية. ولذلك لم يحاولْ **حسين أمين** أن يرفضَ المصطلحَ بل إن المصطلحَ ومضمونَه لا يناقضان الإسلام، لأن العلمانيةَ تولي الحياةَ الدنيا اهتماماً أكثرَ مما تفعلُ المسيحيةُ ولذلك وقعت في صدامٍ معها، أما الإسلامُ فإنه يهتمُّ بالحياة الدنيا ويعطي لكلٍّ من الدارين نصيبَها[٧] ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [البقرة:١٧٢] و﴿**وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا**﴾ [القصص:٧٧]، ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٢].

إن العلمانيةَ تُهْدِر الجانبَ الروحيَّ في الإنسان، وتُهدرُ المقاصدَ الروحيةَ له، وتُلغي كلَّ ما تطمحُ الروحُ إليه من خلودٍ وعبوديةٍ وسعادةٍ دائمة.

ولكن نسي أنه ينقضُ رؤيتَه هذه عندما يُعرفُ العلمانيةَ بأنها: «**محاولةٌ للاستقلالِ ببعض مجالاتِ المعرفةِ عن عالم ما وراءِ الطبيعةِ وعن المسلمات الغيبية**»[٨]، ذلك لأن الإسلامَ يرفض أن يستقلَّ العقلُ عن الوحي في أهمِّ الأسئلةِ التي تواجهُ الإنسان، إنها الأسئلةُ المصيريةُ الكبرى التي تتعلقُ بالغيب.

وعلى كل حالٍ يسعى أغلبُ العلمانيينَ العربَ لكي يُؤَسلموا العلمانية، ويجعلوها متحالفةً مع الدين، أو أن الدينَ علمانيٌ في جوهرِه ﴿**الكلامُ على العلمانيةِ لا يعني البتةَ نفْيَ الدينِ بما هو إرثٌ وتاريخٌ وتجربةٌ أي بما هو حقيقةٌ واقعةٌ لا مجالَ لإنكارِها وتجاوزِها**﴾[٩] ولكن لا يخلو هذا التنظيرُ في كثيرٍ من الأحيانِ من التناقضِ فعلى سبيلِ المثال: يقول **د.فتحي القاسمي**: ﴿**إن العلمانيةَ تصورٌ وضعيٌ لمختلفِ أنشطةِ الإنسانِ بعيداً عن التأويلاتِ المفارقة**﴾ ثم يقولُ مباشرةً: ﴿**وليس في ذلك بالضرورة تحاملٌ على الدين**﴾[١٠]، ثم يقولُ في نفس الصفحة: ﴿**لقد جَعلتْ العلمانيةُ الدينَ في وضعٍ جديد، يسودُه الحرج، ولم تُلغِه، وإنما قيدتْ مجالِ نشاطِه**﴾[١١].

يسعى أغلبُ العلمانيينَ العربَ لكي يُؤَسلموا العلمانية، ويجعلوها متحالفةً مع الدين، أو أن الدينَ علمانيٌ في جوهره، بالرغم من أن هذا التنظيرَ في كثيرٍ من الأحيانِ لا يخلو من التناقضِ.

إن كلامَ **القاسميِّ** هذا يُعبرُ عن سذاجةٍ أو استيذاجٍ للآخرين، لأن آخرَ الكلامِ يَنقضُ أولَه فعندما تكونُ العلمانيةُ تصوراً وضعياً، بينما الدينُ قرارٌ إلهي، وحين تكونُ العلمانيةُ تصوراً مادياً، بينما الدين فيه مساحةٌ واسعةٌ للغيب، أو ما يسميه "التأويلاتُ المفارقة" فكيف لا تكونُ العلمانيةُ في هذه الحالةِ متحاملةً على الدين؟

وكذلك عندما يطرحُ الدينُ رؤيتَه الشاملةَ للوجود، ومنهجَه الكاملَ للحياة، فتُحدُّ العلمانيةُ من هذه الرؤيةِ وترفضُ هذا المنهج، وتضعُ الدينَ في وضعٍ حرج، وتُقيدُ فاعليتَه، كيف لا تكونُ متحاملةً على الدين في هذه الحالة؟ وكيف لا تكونُ -العلمانيةُ- كذلك وهي بنظرِ **القاسميِّ** نفسِه تَعتَبرُ المقولاتِ الثابتةَ للدينمتطرفةً مهترئةً لا يصدقُها العقل[١٢].

وبالرغم من هذا التناقضِ الواضحِ يظل هؤلاءِ يُصرون على أن الإسلامَ دينٌ علمانيٌّ كما طرحَ **حسن حنفي**[١٣] **والجابري**[١٤] **ونصر حامد أبو زيد**[١٥] **وحسين أحمد أمين**[١٦] **وعبد المجيد الشرفي**[١٧] **وفتحي القاسمي**[١٨] **ومحمد أركون**[١٩] **وطيب تيزيني**[٢٠] **وطارق حجي**[٢١] ولكن كيف يكون الإسلام ديناً علمانياً عند هؤلاء؟

أ - لأنه اهتم بالحياةِ الدنيا كما سبق ورأينا عند **حسين أحمد أمين**[٢٢]، ولأنه لم يعرفْ في تاريخه كنيسةً أو نظاماً كهنوتياً، ولم يحكرْ المعرفةَ والنظرَ على أحد[٢٣]. ولأن النبي ﴿**كان ملِكاً وعاش ملكاً، ومات ملكاً، وحُبب إليه من الدنيا ثلاث: النساءُ والطيبُ والصلاةُ وانخرط في الواقعِ الدنيوي المَعيش**﴾[٢٤]. وقال للناس: ﴿أنتم أعلمُ بشؤونِ دنياكم﴾[٢٥].

ب - ولأنه قاصرٌ على الأخلاقِ والقيم، وليس فيه نظامٌ سياسيٌّ أو اقتصاديٌّ أو اجتماعيٌّ عند **طارق حجي**[٢٦]، أو بتعبيرِ **طيب تيزيني ومحمد سعيد العشماوي** لأنه دينُ الهدايةِ والرحمة، وليس دينُ العلمِ والتشريع[٢٧]، أو بتعبيرٍ آخرَ **للتيزيني** لأن القرآن ﴿**يقولُ كلَّ شيءٍ ولا يقولُ شيئاً**﴾ لأنه كتابُ مودةٍ وأخلاق[٢٨]. أو لأن القرآنَ على حدِّ تعبيرِ **محمد أركون** ﴿**مَجازاتٌ عالية**﴾ ومن الوهم اعتقادُ الناسِ بتحويلِ هذه التعابيرِ المجازيةِ إلى قانونٍ فعال، أوشريعةٍ واقعية[٢٩].

ج ـ ولأنه تخلصَ من أقوى أعراضِ المقدس: الأسرارُ والمعجزات، وأعلى من قيمةِ العقل حتى تُكُلِّمَ عن معقوليةِ الشريعةِ وهذا يعني أن بوادرَ العلمنةِ تكمنُ في داخلِه[٣٠].

د ـ ولأن الإنسانَ هو محورُ الكونِ في القرآن، فقد ذُكر في خمسٍ وستينَ آية، والدنيا ذُكرت فيمائةٍ وخمسٍ وعشرين مرة، وهي ليست إفلاساً كما يصورُها المغالونَ وإنما هي مليئةٌ بالطيباتِ والخيراتِ، والقطوفِ الدانية[٣١].

هـ ـ ولأن أُسسَ التشريعِ في الإسلامِ انطلاقاً من مصادرِه الكبرى تتوفرُ على قسطٍ كبيرٍ من الأريَحيةِ والقابليةِ للتشكلِ والتلونِ بما يُسعدُ الإنسانَ في الأرض حتى وإن بلغ ذلك حدَّ تعطيلِ المفروضِ من الأحكام، وتجميدِ نصوصٍ شرعية[٣٢]. إن هذا النصَّ لا يختلفُ عما قرره **أركونُ وطيب تيزيني** آنفاً وهو ما يعني أيضا أن **«القرآنُ كل شيءٍ فيه متحركٌ ومتموجٌ ومفتوحٌ ومليءٌ بالاحتمالات»**[٣٣].

و ـ ولأن الرسولَ **«لو قُدّر له أن يعيشَ بين ظهرانينا حيناً من الدهر، وفي وسطِنا المُعلمَنِ لَعدَّلَ كثيراً من المواقف ولَنسخَ العديدَ من أقوالِه، لأنه كان مؤمناً بجدليةِ العلاقةِ بين المفاهيم الدينيةِ التشريعية، والواقعِ البشريِّ النسبيِّ والمتطورِ على الدوام ، ولكننا ما نزالُ نرتطمُ بالرافضينَ لذلك»**[٣٤]. **«ولا يزالُ النصُّ يسيطرُ على حسابِ الفكر»**[٣٥].

ز ـ وما قام به علماءُ المسلمين عبرَ العصورِ من اجتهاداتٍ جريئةٍ وطريفةٍ يدلُّ على أنه يمكنُ في الإسلام علمنةُ المقدّسِ بما يلائمُ وضْعَ المسلمين، ولا يتناقضُ ذلك مع مقاصدِ الشرع، وما دام في إطارِ المصلحة[٣٦]. فالاجتهادُ في الإسلام ممارسةٌ عقلانيةٌ ذاتُ طابعٍ علمانيٍّ تنويريٍّ يجعلُ الشريعةَ والأحكامَ ناسوتيةً لأن العقلَ هو الذي يؤسسُها ويصبحُ أَولى من النص، مما يجعلُ الحقائقَ متعددةً كما نرى في كثرةِ الاختلافات والمذاهب[٣٧].

> الإسلامَ يرفض أن يستقلَّ العقلُ عن الوحي في أهمِّ الأسئلةِ التي تواجهُ الإنسان، إنها الأسئلةُ المصيريةُ الكبرى التي تتعلقُ بالغيب.

ونتساءلُ هنا : كيف لا تتناقضُ علمنةُ المقدّسِ مع مقاصدِ الشرع؟

إن الإجابةَ عند **فتحي القاسمي** نفسِه **«لقد سبقنا الفقهاءُ والأصوليون إلى تطويعٍ جريءٍ للشريعة، ولكننا منذ عصرِ النهضةِ إلى الآن لم نجترئْ على إحداثِ سُنةٍ ثقافيةٍ إسلاميةٍ جديدةٍ داخلَ المنظومةِ الإسلاميةِ قادرةٍ على فرقعةِ كثيرٍ من الثوابتِ التي أُضفيت عليها قداسةٌ لم تزدها عصورُ الانحطاطِ والتخلفِ إلا تَرَسخاً، فهل ذلك يكون بواسطة العلمانية؟»**[٣٨]. وخصوصاً إذا كانت العلمانية **«هي أساسُ الوحي، فالوحيُ علمانيٌّ في جوهرِه، والدينيةُ طارئةٌ من صُنْعِ التاريخ، وتظهرُ في لحظاتِ تَخلُّفِ المجتمعاتِ وتَوَقفِها عن التطور»**[٣٩].

ونعيدُ السؤالَ الذي أجاب عنه **فتحي القاسمي** ولكن بطريقةٍ تكشفُ موطنَ التناقضِ والمغالطةِ فنقول: هل يمكن في الإسلامِ فرقعةُ كثيرٍ من الثوابتِ دون أن يتناقضَ ذلك مع مقاصدِ الشريعة؟ ذلك ممكنٌ في العلمانيةِ فعلاً كما يأملُ **فتحي القاسمي**، لأنه في العلمانيةِ ﴿**كلُّ شيءٍ يجوز**﴾ !! "كلُّ شيءٍ يجوز" أقترحُه تعريفاً للعلمانية، وليس فيه من جديدٍ إلا طريقةُ التعبير، لأنه مضمنٌ لدى من يزاوجُ بين العلمانيةِ والنسبيةِ كمراد وهبة على سبيلِ المثال.

الحكمُ على الإسلام لا يأتي من خلالِ قبولِ الناس له أو عدمِ قبولِهم، وإنما يأتي من خلال مبادئه ومُثُله ورؤيته التي يطرحُها في مصادرِه.

ح - ولأن التاريخَ الإسلاميَّ يفيضُ بالعلمنةِ ففيه الشعرُ الماجنُ والدنيوي، والتراثُ يفيضُ بالدنيويةِ وتصويرِ الحياةِ الاجتماعية، وخصوصاً حياةُ القصورِ على أنها مملوءةٌ بالملذات والشهوات، والإقبالِ على الدنيا[٤٠]، والخمرُ كان شائعاً ومنتشراً في مُجملِ العالم الإسلامي[٤١]، وانتشارُ ظاهرةِ الزندقةِ في أوساطِ المسلمين واستفحالِها حتى وُصِم بذلك بعضُ الخلفاءِ مثل الوليدِ بنُ يزيد [٨٨هـ-١٢٦هـ] والمهدي [١٥٨هـ-١٦٩هـ] وإعلانُ الزنادقةِ لآرائِهم بكل شجاعةٍ وصراحةٍ دون خوف[٤٢].

إن كلَّ هذا يؤكد - بنظرِ الخطابِ العلماني - على أن الإسلامَ أجاز لأبنائه في التنظيرِ والممارسةِ بعضَ أشكالِ العلمانية[٤٣]، ويؤكدُ ﴿**أن العلمنةَ في المجتمع الإسلاميِّ القديم ليست بدعاً، أو رجماً بالغيب، وإنما واقعٌ عايشه المسلمونَ واستأنسوا به أكثرَ من استئناسِهم بالشريعة**﴾[٤٤]!!!.

ثانياً : تعقيبٌ ونقد

المقولاتُ العلمانيةُ السابقةُ والتي من خلالها يتوصلُ العلمانيون إلى القول بأن الإسلامَ دينٌ علماني، ويقبلُ العلمنةَ تتركزُ حول المحاورِ التالية:

أولاً : أن الإسلامَ اهتم بالحياة الدنيا .

ثانياً : جعَل الإنسانَ مركزياً في هذا الكون .

ثالثاً : تخلصَ من المقدس .

رابعاً : تخلصَ من المعجزات .

ويكفي أن نقول: لو أن الأمةَ بأكملِها أعرضت عن الإسلام واختارت العلمانية، وانغمست في الدنيويةِ فإن هذا لا يعني أن الإسلامَ دينٌ علماني، لأن الحكمَ على الإسلام لا يأتي من خلالِ قبولِ الناس له أو عدمِ قبولِهم، وإنما يأتي من خلال مبادئه ومُثُله ورؤيتِه التي يطرحُها في مصادرِه.

ونناقشُ المحاورَ الأربعةَ بعون الله عز وجل فنقول :

أولاً : لقد أَوْلى الإسلامُ بالفعل عنايةً بالحياة الدنيا ولكنْ بقدر، ويبدو أن الإسلامَ يبالغُ في الاهتمامِ بالحياة الدنيا إذا ما قُورنَ بالمسيحية المزوّرةِ التي دعتْ إلى الرهبنة، وتطرفتْ في قمعِ الفطرةِ الإنسانيةِ المحتاجةِ إلى البلاغِ في طريقِ الآخرة.

ولكن المغالطةَ العلمانيةَ تقوم على الإغفالِ والإبراز:
فيستدلُّ العلمانيُّ بأن الدنيا ذُكرت في القرآن ١١٥ مرةً وهذا يعني أن الدنيويةَ "العلمانية" لها أصولُها القرآنيةُ وهذا هو الإبراز، أما الإغفالُ فيقومُ على طمسِ وتجاهلِ أن الدنيا عندما ذُكرت في القرآن غالباً تُذكرُ بالذمِّ والامتهانِ والتحذيرِ من بَهرجِها وزُخرفِها، وأن المستدلَّ بالآياتِ يغالطُ دون أن يخجلَ بل إنه عندما يقول: إن الدنيا ليست في القرآنِ مصدرَ إفلاسٍ كما يصورُها المغالون، يعلمُ أنه يتجافى عن الحقيقةِ وهي إلى جوارِه، لأنه لو تأملَ في الآياتِ التي قام بإحصائِها لوجد أن القرآنَ هو الذي يحكم على الحياةِ الدنيا بأنها ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] و ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥] وليس المغالون.

إن الأصلَ في دعوةِ القرآنِ هي الآخرة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] والدنيا بُلْغةٌ إلى الآخرة، ووسيلةٌ لا بُد من الأخذ بها، ولا بُد من الإعمارِ والقيام بالأمانة، ولكن الآخرةَ في النهاية هي الغايةُ وهي الجوهر. ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧] ولكن الآخرةَ هي المرادُ والمقصدُ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القصص:٧٧] إن الأصلَ في دعوةِ القرآنِ الابتعادُ عن الانخراطِ الأعمى في الدنيويةِ من شهواتٍ وملذات، والاكتفاءُ بـ ﴿الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ، والحلالِ الذي فصَّله اللهُ ﷻ في كتابه .

ثانياً: وأما أنَّ الإسلامَ دينٌ علمانيٌّ لأنه جعل الإنسانَ محورَ الكون، فالمقدمةُ صحيحة، والنتيجةُ كاذبة، فالإنسانُ فعلاً هو محورُ الكونِ في القرآن الكريم فهو "الخليفةُ" ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] وهو حاملُ الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ [الأحزاب:٧٢].

ولكن ههنا مغالطةٌ أخرى أيضاً تقومُ على الإغفالِ والإبرازِ:

الإبرازُ هو الإشادةُ بالموقفِ الإيجابيِّ للقرآن من الإنسان، والإغفالُ هو تجاهلُ موقفِ القرآنِ من الإنسانِ المنحطِّ والمغرور. الإنسانُ المحورُ في القرآن الكريم هو الإنسانُ الذي حُبِي بالعقلِ والعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] وشُرِّف بالتكليف ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وكُرِّم بالرسالة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ﴾ [آل عمران:١٨٣][٤٥] وأُجيبَ على كل أسئلتِه حتى لا يتخبطَ في الظلام، وأُمِر بالعبادةِ لتشبَع روحُه، ودُعي إلى التفكرِ والنظرِ ليَشبعَ عقلُه، ورُخِّصَ له التمتعُ بالطيباتِ ليَشبعَ جسدُه، وحُذِّر من الإسراف والانحرافِ حتى لا تنزوي نفسُه، وتجمحُ غريزتُه، ويعسرُ عليه حينئذ حِفظُ الأمانةِ التي رضي بحملِها.

الإنسانُ في القرآن

يمكن أن يسموَ حتى يقتربَ من الملإِ الأعلى، ويصبحَ أسمى من الكون، وأشرفَ مِن كل ما فيه، ويصدقُ عليه عندئذ قولُ الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠] و ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] ولكنه يمكن أيضاً أن ينحطَّ ويهوي في مداركِ الشقاءِ حتى يصبحَ في ﴿أسفل سافلين﴾ [التين:٥] ويقولَ ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] ويصبحَ أسوأَ من البهائم ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] هذا ما يغفلُه الخِطابُ العلمانيُّ ليكرسَ مركزيةَ الإنسانِ في الكون، وسيادتَه المطلقةَ فيه كما أرادت العلمانيةُ الغربيةُ في مرحلةٍ من مراحلها.

﴿إن الإنسانَ في القرآن الكريم ليس مخلوقاً ساقطاً خاطئاً منذ البدايةِ كما هو في الرؤيةِ المسيحية﴾[٤٦]، وليس هو ذلك الإنسانُ المتمردُ الجبارُ العنصريُّ النازيُّ الذي أرادته فلسفةُ التنويرِ كما طرحها ماكيافللي ونيتشه وداروين ومارسها هتلر وستالين وموسوليني. إنه في القرآنِ الإنسانُ المتوازنُ الذي استُخلفَ في الكون، ووُكِلتْ إليه عمارتُه، وأُمر بالعبادة والتقوى والعملِ الصالح.

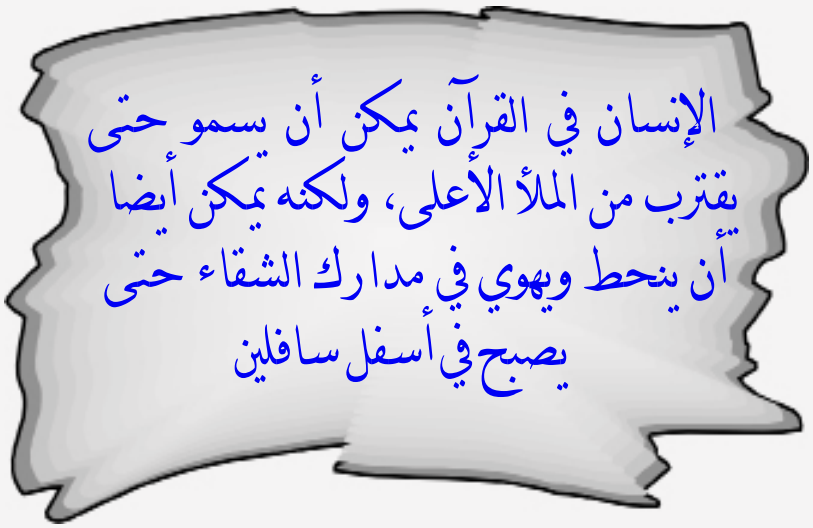

ثالثاً: وأما القولُ بأن الإسلامَ تخلصَ من المُقدس فهو أمرٌ في غايةِ العَجب! كيف ذلك؟ وأين الأدلـة؟ والمقدساتُ في الإسلام كثيرةٌ فالكتابُ الكريمُ مقدسٌ، والبيتُ الحرامُ مقدس، والنبيُّ ﷺ مقدس، والمسجدُ مقدس، والعباداتُ من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ مقدسة، والجهادُ مقدس، وهكذا فالمقدسُ يحتل مساحةً واسعةً في الرؤيةِ الإسلاميةِ لا يمكن اختراقُها، والمسلمُ مأمورٌ بالدفاع عن مقدساتِه حتى أن روحَه لا تساوي شيئاً في سبيلِها ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

إلا إذا كان المقصودُ هو التخلصُ من المقدساتِ الخرافيةِ التي كانت سائدةً عند الفراعنة، واليونان، كتقديسِ الكواكبِ والنجوم، وظواهرِ الطبيعة، واتخاذِ آلهةٍ للقمر، وآلهةٍ للشمس، وآلهةٍ للمطرِ وغيرِ ذلك فإن الإسلامَ بالفعل جَرّدَ الطبيعةَ من هذه القداسةِ الخرافيةِ والوهمية.

ولكن لا بُد من الإشارةِ إلى أن الإسلامَ في الوقت الذي سلَب فيه من الطبيعةِ قداستَها الزائفة، إلا أنه لم يُجردِ الطبيعةَ من مغزاها الروحيِّ والرمزي، لأنه رأى في الخليقةِ كلِّها المتمثلةِ في السماواتِ والأرضِ وما بينهما والشمسِ والقمرِ والكواكبِ واختلافِ الليل والنهار، والرياحِ اللواقح، والغيثِ النازل، والسحابِ المسخر، والبحارِ المالحة، والأنهارِ العذبة، والجبالِ الأوتاد، رأى في كل ذلك آياتٍ بيناتٍ لله ﷻ في الكون، وبصائرَ للإنسان[٤٧].

إن الطبيعةَ في القرآن ذاتُ مغزىً كونيٍّ تستوجبُ احترامَ الإنسانِ لها وتقديرِها، لأجل صلتِها الرمزيةِ بالله جل شأنُه، وتَعامُله معها يجب أن يقومَ على أساسِ العدلِ والتناغمِ والانسجام لأنه خليفةٌ مؤتَمَنٌ عليها، وضعها اللهُ ﷻ تحت مسئوليتِه ليستفيدَ منها، وهي إلى جانب ذلك كتابٌ مفتوحٌ منظور، إلى جانب القرآنِ الكريمِ الكتابِ المقروءِ وفي كلٍّ منهما آياتٌ بينات، ودلالاتٌ مشاهدات، ودروسٌ واضحاتٌ يأخذُ منها الإنسانُ الموعظةَ والعبرة[٤٨].

إن هذا التجريدَ الإسلاميَّ تجريدٌ إيجابيٌّ ينفي الخرافة، ويستبقي الدلالة، بعكس التجريدِ العلمانيِّ فإنه يقومُ على سلبِ المغزى الكونيِّ والدلاليِّ من الطبيعة، وقطعِ العلاقةِ الرمزيةِ بينها وبين الخالق ﷻ[٤٩]، وبالتالي تصبحُ الطبيعةُ - في الرؤيةِ العلمانية - بلا غاية، وبلا هدف، وكذلك بلا حمايةٍ أو رعاية، فينتجُ عن ذلك عدمُ احترامِ الإنسان لها، وخيانتُه للأمانةِ التي أوتِمن عليها، وتصبحُ علاقةُ الإنسانِ مع الطبيعة قائمةً على الانتقام أو اللامبالاة، وهو ما يؤدي أو سيؤدي إلى كوارثَ كونيةٍ تنتظرُها البشريةُ برعبٍ لم يسبقْ له مثيل، كالتلوثِ البيئيِّ والنفاياتِ النوويةِ والأوزونِ وأخطارِ أسلحةِ الدمارِ الشامل.

وحتى فيما سُمي بلاهوت الأرضِ أو لاهوت الطبيعةِ فإن علاقةَ الإنسانِ مع الطبيعةِ علاقةُ صراعٍ وقهرٍ وسيطرة، وليست كما هي في الإسلامِ علاقةُ تسخيرٍ وحبٍّ وتقدير. إن الإسلامَ يحولُ بين الإنسانِ والطغيانِ الذي يساورُه بسببِ غرورِ العلمِ أو غرورِ القوةِ ويُذكرُه دائماً ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:٨][٥٠].

رابعاً: والقولُ بأن الإسلامَ تخلصَ من المعجزات لا يقلُّ عجباً عن سابقِه، فإنا إذا غضضنا الطرفَ عن المعجزات الحسيةِ التي رُويت بالتواترِ المعنويِّ لسيدنا رسولِ الله ﷺ مثل الإسراءِ والمعراج، وانشقاقِ القمر، ونبعِ الماء من بين أصابعِه ﷺ ، وحنينِ الجذع، فإن القرآنَ الكريمَ نفسَه يفيضُ بالحديث عن المعجزاتِ كانفلاقِ البحر، وانقلابِ العصا، وانبجاسِ الماءِ من الحجرِ لسيدنا موسى عليه السلام ، وشفاءِ المرضى، وإحياءِ الموتى، والكلامِ في المهد لسيدِنا عيسى عليه السلام.

إن إنكارَ كل هذه المعجزاتِ أو التعسفِ في تأويلِها ليس إلا لوناً من أو ألوان الصلفِ والمكابرةِ والجحود.

والآن بعد أن كشفنا المغالطاتِ التي يبني عليها الخطابُ العلماني رؤاهُ وتصوراته ونتائجه يمكننا أن نقول : ﴿**إن العلمنةَ ليست فقط رؤيةٌ غيرُ إسلاميةٍ للوجود، بل إنها تقفُ موقفاً مناهضاً للإسلام نفسِه، ولذلك فالإسلامُ يرفض العلمنةَ ومآلاتِها النهائيةِ ما ظهر منها وما بطن**﴾[٥١]، يرفضها نظراً وعملاً لأنها الدنيويةُ المحضة، والدهريةُ الخالصة، والماديةُ المطلقة، وهي مقولاتٌ جاء الإسلامُ لمحاربتها، وإنقاذِ الإنسانِ من ظلماتِها وأزماتِها.

ونختمُ بالقول : إن الأسلمةَ وليست العلمنةُ هي التي تحررُ الإنسانَ من الأساطيرِ والخرافات، والأرواحِ الشريرة، والشعوذةِ التي يُظَنُّ أنها تتحكمُ في مصيرِ الكون[٥٢]، وتُحررُه كذلك من الأنانيةِ والنفعيةِ والمادية، وتقيمُ توازناً بين الجوانبِ المختلفةِ في كيانه ﴿**وعندما يتحررُ الإنسانُ على هذا النحو فإن وُجهةَ حياتِه وسيرَها يكونان نحو تحقيقِ طبيعتِه الأصلية، تلك الطبيعةُ المتوائمةُ مع طبيعةِ الكائنات، ومع الوجودِ كلِّه ألا وهي الفطرة، وهو كذلك يتحررُ من العبودية لدوافعِه الحيوانيةِ النزاعةِ إلى ما هو دنيوي، وإلى ما من شأنِه أن يكون ظلماً وتعدياً على جوهر كيانِه وعلى روحِه، ذلك أن الإنسانَ بما هو كائنٌ ماديٌّ يغلبُ عليه نسيانُ طبيعتِه الحقة، فيجهلُ هدفَه الحقيقيَّ الذي من أجلِه خُلق، وبالتالي يزيغُ عنه**﴾[٥٣] .

هذا التحريرُ للإنسانيةِ قد تحقق بالوحي، وهو يتجلى في أكملِ صُورِه في الرسالةِ الخاتمةِ التي ضَمِنت للإنسانيةِ التحررَ والتقدمَ والرقي. كلُّ ما علينا أن نتمثلَ هذه الرسالةَ ونتفاعلَ معها بكل ثقةٍ وطمأنينةٍ ونُقبلَ عليها طائعينَ مختارين.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأمي
وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين
والحمد لله رب العالمين

د. أحمد إدريس الطعان
كلية الشريعة – جامعة دمشق
ahmad_altan@maktoob.com

هوامش المقال:

[١] د. نصر حامد أبو زيد "نقد الخطاب الديني" ص ٦٤ .

[٢] انظر: د. المسيري"العلمانية تحت المجهر" ص ٦٦، ٦٧. وانظر: رفعت السعيد "العلمانية بين العقل والإسلام والتأسلم" ص ٥٩ .

[٣] انظر: د. حسن حنفي "حوار المشرق والمغرب" ص ٤٥ وانظر له "التراث والتجديد" ص ٥٥ مكتبة الإنجلو المصرية ط ٣ / ١٩٨٧ .

[٤] انظر: د. عابد الجابري "حوار المشرق والمغرب" ص ٤٦ . وانظر له : "وجهة نظر" ص ٩٦ ، ١٠٤ .

[٥] انظر: د .الجابري "وجهة نظر" ص ١٠٤ .

[٦] انظر: السابق ص ٤٦ .

[٧] انظر: حسين أحمد أمين "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة" ٩١ .

[٨] السابق ص ٩٠ .

[٩] علي حرب "نقد الحقيقة" ص ٧٠ .

[١٠] انظر: د. فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها" ص ٤٨ .

[١١] السابق نفسه .

[١٢] انظر: د. فتحي القاسمي ص ٢٧ .

[١٣] انظر: د. حسن حنفي "حوار المشرق والمغرب" ص ٤٥ بالاشتراك مع د. عابد الجابري .

[١٤] انظر: د. محمد عابد الجابري "حوار المشرق والمغرب" ص ٤٦ بالاشتراك مع حسن حنفي.

[١٥] انظر: د. نصر حامد أبو زيد "نقد الخطاب الديني" ص ٦٤ .

[١٦] انظر: حسين أحمد أمين "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية" ص ٩١ .

[١٧] انظر: د. عبد المجيد الشرفي "لبنات" ص ٥٩.

[١٨] انظر: د. فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها شرقاً وغرباً" ص ٢٠٤ ، ٢٠٧.

[١٩] انظر: د. محمد أركون "تاريخية الفكر" ص ٢٩٩.

[٢٠] انظر: د. طيب تيزيني "الإسلام والعصر" ص ١٠٥ لأنه يرى أن القرآن يقول كل شئ ولا يقول شيئاً .

[٢١] انظر: د. طارق حجي "الثقافة أولاً وأخيراً" ص ٣٢.

[٢٢] انظر: حسين أحمد أمين "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة " ص ٨٩ .

[٢٣] انظر: السابق: ص ٩٥ .

[٢٤] انظر: علي حرب "نقد الحقيقة" ص ٦١.

[٢٥] انظر: السابق ص ٦٨ ، والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معايش رقم ٤٣٥٨ (عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّبِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ) .

[٢٦] انظر: طارق حجي "الثقافة أولا وأخيراً" ص ٣٢.

[٢٧] انظر: د. طيب تيزيني "الإسلام والعصر" ص ١٠٥ ، ١٥٥ وانظر : العشماوي "الإسلام السياسي" ص ٣٥،٣٦ . وبعض التلاميذ المبتدئين مثل أنور خلوف "القرآن بين التفسير والتأويل والمنطق العقلي" ص ٣٤ .

[٢٨] انظر: د. طيب تيزيني "النص القرآني وإشكالية البنية والقراءة" ص ٢٤٣ ومناظرته مع الدكتور البوطي "الإسلام والعصر" ص ١٠٥.

[٢٩] انظر: د. محمد أركون "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" ص ٢٩٩ وانظر: فتحي القاسمي"العلمانية وانتشارها .." ص ١٧٦.

[٣٠] انظر: د. عبد المجيد الشرفي "لبنات" ص ٥٩.

[٣١] انظر: د. فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها.." ص ١٧٨.

[٣٢] انظر: السابق : ص ٤٧٤.

[٣٣] د.محمد أركون "تاريخية الفكر" ص ١٧ .

[٣٤] د. فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها.." ص ١٩٠.

[٣٥] د. عبد المجيد الشرفي "الإسلام والحداثة" ص ١٦٠.

[٣٦] انظر: فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها.." ص ١٩٣ .

[٣٧] انظر: علي حرب "نقد الحقيقة" ص ٦٣ – ٦٦.

[٣٨] انظر: د. فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها.." ص١٩٦.

[٣٩] انظر: د. حسن حنفي "التراث والتجديد" ص٥٥- طبعة الإنجلو المصرية ط ٣ / ١٩٨٧ .

[٤٠] انظر: د. الشرفي "لبنات" ص ٥٩ وانظر: د. القاسمي "العلمانية وانتشارها" ص ٢٠٤، ٢٠٧

[٤١] انظر: د . فتحي القاسمي " العلمانية وانتشارها.." ص ٢٠٨.

[٤٢] انظر: د. عبد الرحمن بدوي "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" ص : ي - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٥ وانظر: فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها.." ص ٢٠٤.

[٤٣] انظر: د. الشرفي " لبنات" ص ٦١.

[٤٤] د. فتحي القاسمي "العلمانية وانتشارها.." ص ٢١٢.

[٤٥] وقال ﷻ: ﴿يَابَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] وقال ﷻ: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:١٣٠].

[٤٦] انظر: د. سيد محمد نقيب العطاس "مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية" ٦١.

[٤٧] انظر: د. العطاس ص٦٦ ، ٦٧.

[٤٨] انظر: السابق ص ٦٥.

[٤٩] انظر: السابق ص ٦٦.

[٥٠] انظر: أبو القاسم حاج حمد "العالمية الإسلامية الثانية" ص ٨١. نسخة دار المسيرة – بيروت.

[٥١] انظر: د. العطاس "مداخلات فلسفية .. " ص ٦٧.

[٥٢] انظر: د. العطاس "مداخلات فلسفية" ص ٧٠.

[٥٣] السابق ص ٧١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

يأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفا للعقل الصريح، فإنّ ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس أو يفهمون منها معنى باطلاً فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة.

مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٩٠

يقول ابن القيم:

كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده. ولا بد، حتى في الأعمال. فمن رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق. فرغب عن العمل لمن ضَرُّه ونَفْعه وموته وحياته وسعادته بيده. فابتُلي بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك. وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم. وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بد. وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي، ابتلي بكناسة الآراء وزِبالة الأذهان، ووسخ الأفكار.

فليتأمل من يريد نُصح نفسه وسعادتها وفلاحها في هذا الموضع في نفسه وفي غيره.

مدارج السالكين شرح منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين ١٥١-١٥٢

درسٌ من النبوَّةِ

فصلٌ من كتاب: وحي القلم

مصطفى صادق الرافعي

قالوا: إنهُ لمَّا نَصر اللهُ (تعالى) رسولَهُ وردَّ عنهُ الأحزابَ وفتَح عليهِ قُرَيْظَةَ والنَّضِير، ظنَّ أزواجُهُ ﷺ أنَّه اختصَّ بنفائسِ اليهودِ وذخائرِهم؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة: عائشة، وحَفْصة، وأمَّ حبيبة، وسَوْدة، وأمَّ سَلَمة، وصفيّة، وميمونة، وزينب، وجُوَيْرية؛ فقعدْنَ حولَهُ وقلْن: يا رسولَ الله، بناتُ كِسرى وقَيْصَرَ في الحَلي والحُلَلِ، والإماءِ والخَول، ونحن ما تراهُ منَ الفاقةِ والضيق... وآلَمْنَ قلبَهُ بمطالبتِهنَّ له بتَوْسِعَةِ الحال، وأنْ يعاملَهُنَّ بما تُعامِلُ بهِ الملوكُ وأبناءُ الدنيا أزواجَهم؛ فأمرهُ الله (تعالى) أنْ يتلوَ عليهنَّ ما نزلَ في أمرهِنَّ من تخييرهِنَّ في فِراقِه، وذلك قولُهُ - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٢٨]

قالوا: وبدأَ ﷺ بعائشةَ -وهي أحبَّهن إليه- فقال لها: ﴿إنِّي ذاكرٌ لَكِ أمراً ما أحبُّ أنْ تعجَلِي فيه حتى تَسْتأمِرِي أبوَيك﴾. قالَت: ما هو؟ فتلا عليها الآية.

قالت: أفيكَ أستأمِرُ أبويَّ؟ بلْ أختارُ اللهَ - تعالى - ورسولَه.

ثم تَتَابَعْنَ كلّهن على ذلك، فسمَّاهُنَّ الله "**أمَّهات المؤمنين**"، تعظيماً لِحقهِنّ، وتأكيداً لِحرمتِهنّ، وتفضيلاً لَهُنَّ على سائرِ النساء.

هذه هي القصةُ كما تُقرأُ في التاريخِ وكما ظهرَتْ في الزمانِ والمكان، فلنقرأْها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرَتْ في الإنسانيَّةِ العالية؛ فسنجدُ لها غَوْراً بعيداً، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفيًّا دقيقاً لِلأوهامِ والحقائق.

وهي قبلَ كلِّ هذا ومعَ كل هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبَّهْ لها أحد، ومن أجلِها ذُكرِتْ في القرآن الكريم، لِتكونَ نصًّا تاريخيًّا قاطعاً يُدَافِعُ بِهِ التاريخُ عن هذا النبيِّ العظيم في أمرٍ من أمورِ العقلِ والغَريزة، فإنَّ جَهَلةَ المبشرينَ في زمنِنا هذا، وكثيراً من أهل الزَّيغِ والإلحاد، وطائفةً من قِصَارِ النظرِ في التحقيقِ يزعمونَ أن محمداً ﷺ إنَّما استكثرَ من النساءِ لِأهواءٍ نفسيةٍ محضةٍ وشهواتٍ كالشهوات؛ ويَتَطرَّقونَ من هذا الزعمِ إلى الشُبْهة، ومن الشُبْهةِ إلى سوءِ الظنّ، ومن سوءِ الظنِّ إلى قبحِ الرأي؛ وكلهم غبيٌّ جاهل؛ فلو كانَ الأمرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبه، لَمَا كانَتْ هذه القصةِ التي أساسُها نفيُ الزينةِ وتجريدُ نسائِهِ جميعاً منها، وتصحيحُ النيَّةِ بينَهُ وبينهُنَّ على حياةٍ لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوَّ الزَّهر... وأمرُهُ من قِبَلِ ربِّهِ أنْ يُخيِّرَهُنَّ جميعاً بينَ سراحِهِنَّ فيكُنَّ كالنساءِ ويجدْنَ ما شِئْنَ من دنيا المرأة, وبينَ إمساكِهِنَّ فلا يكُنَّ معه إلَّا في طبيعةٍ أخرى تبدأُ من حيث تنتهي الدنيا وزينتُها.

فالقصةُ نفسُها ردٌّ على زعمِ الشهوات، إذ ليسَتْ هذه لغةَ الشهوة، ولا سياسةَ معانيها، ولا أسلوبَ غضبِها أو رِضاها، وما ههنا تمليقٌ، ولا إطراءٌ، ولا نُعومةٌ، ولا حِرصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بِلغةِ الحاسة؛ والقصةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليسَ فيها معنًى ولا شِبْهُ معنًى من حرارةِ القلب, ولا أثرٌ ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميلِ النفس, ولا حرفٌ أو صوتِ حرفٍ من لغةِ الدم. وهي على منطقٍ آخرَ غيرِ المنطقِ الذي تُستمالُ به المرأة، فلم تقتصرْ على نفي الدنيا وزينةِ الدنيا عنهُنّ، بل نَفَتِ الأمَلَ في ذلك أيضاً إلى آخرِ الدهر، وأماتَتْ معناهُ في نفوسِهِنّ، بقَصْرِ الإرادةِ منهُنّ على هذه الثلاثة: اللهُ في أمرِهِ ونهيه، والرسولُ في شدائدِهِ ومُكابَدَتِهِ، والدارُ الآخرةُ في تكاليفِها ومَكَارِهِها، فليسَ هنا ظرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياسةٌ لِطبيعةِ المرأة، ولا اعتبارٌ لِمزاجِها، ولا زُلْفَى لِأنوثتِها، ثم هو تخييرٌ صريحٌ بينَ ضِدينِ لا تتلوَّنُ بينَهما حالةٌ تكونُ منهما معاً، ثم هو عامٌّ لِجميعِ زوجاتِهِ لا يستثنى منهُنَّ واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على المرأةِ والاستمتاعِ بها لا يأتي بشيءٍ من هذا، بل يُخاطبُ في المرأة خيالَها أول ما يُخاطب، ويُشبِعُهُ مُبالغةً وتأكيداً، ويُوسِعُهُ رجاءً وأملاً، ويقرِّبُ له الزمنَ البعيدَ، حتى لو كانَ في أولِ الليلِ وكانَ الخِلافُ على الوقت، لَحقَّقَ لَهُ أنَّ الظهرَ بعدَ ساعة.

وبرهانٌ آخرُ؛ وهو أنَّ النبي ﷺ لم يتزوَّجْ نساءَهُ لِمتاعٍ مِمَّا يُمتَّعُ الخيالُ بِهِ، فلو كانَ وَضْعُ الأمرِ على ذلك لَمَا استقامَ ذلك إلَّا بالزينةِ وبالفنِّ الناعمِ في الثوبِ والحِلْيةِ والتشكُّلِ كما نرى في الطبيعةِ الفنيَّة، فإنَّ المُمثّلةَ لا تمثلُ الروايةَ إلَّا في المسرحِ المهيأ بمناظرِهِ وجَوِّه... وقد كانَتْ نساؤُهُ ﷺ أعرفَ بِه؛ وها هو ذا ينفي الزينةَ عنهُنَّ ويُخيرُهُنَّ الطلاقَ إذا أصرَرْنَ عليها. فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشهوة؟ وهل ترى إلَّا الكمال المحض؟ وهل كانَتْ متابَعةُ الزوجاتِ التسعِ إلا تسعةَ برُهاناتٍ على هذا الكمال؟

وكأنَّ النبيَّ ﷺ يُلقِي بهذه القصةِ درساً مستفيضاً في فلسفةِ الخيالِ وسُوءِ أثرِه، على المرأةِ في أنوثتِها، وعلى الرجل في رجولتِه؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهواتِ يُقابلُهُ تعقيدٌ في الطبع، وكَذِبٌ في الحقيقةِ ينشأُ عنه كذبٌ في الخلُق، وأنَّه صَرْفٌ لِلمرأةِ إلى حياةِ الأحلامِ والأمانيِّ والطيْشِ والبطَرِ والفراغ، وتعويدُها عاداتٍ تُفسِدُ عاطفتَها، وتُضيفُ إليها التصنّعَ فتُضعِفُ قوتَها النفسيَّةَ القائمةَ على إبداعِ الجمالِ من حقيقتِها لا من مظهرِها، وتحقيقُ الفائدةِ من عملِها لا من شكلِها.

وكلُّ محاسنِ المرأةِ هي خيالٌ متخيَّل ولا حقيقةَ لِشيءٍ منها في الطبيعة، وإنَّما حقيقتُها في العينِ الناظرةِ إليها فلا تكونُ امرأةٌ فاتنةً إلَّا للمفتونِ بها ليسَ غير. ولو ردَّتِ الطبيعةُ على مَنْ يُشَبِّبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُك وهذه فتنتُكِ وهذا سِحرُكِ وهذا وهذا؛ لقَالَتْ لَهُ الطبيعة: بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت...

وبهذا يختلفُ الجمال عندَ فقدِ النظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورةِ ولا سِحرُ الشكلِ ولا فَرَاهةُ المنظر، وإنَّما يفتنُهُ صوتُ المرأةِ ومَجَسَّتُها ورائحتُها.

فلا حقيقةَ في المرأةِ إلا المرأةُ نفسُها؛ ولو أُخِذَتْ كلُّ أنثى على حقيقتِها هذه لَمَا فسدَ رجلٌ ولا شقيَتِ امرأة، ولا انتظمَتْ حياةُ كلِّ زوجينِ بأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

يُريدُ النبيُّ ﷺ لِيُعلِّمَ أمَّتَهُ أنَّ حَيفَ الغريزةِ على العقلِ إفسادٌ لِهذا العقل، وأنَّه متى أُخْضِعَتْ المرأةُ لِحظِّ الغريزةِ واختيارها، كانَتْ حياتُها استجابةً لِجنونِ الرجل، وملأتْها معاني التزيُّدِ والتصنُّع؛ فيُوشِكُ أنْ ينقلَها هذا عن طبيعتِها الساميةِ التي أكثرُها في الحِرمان والإيثارِ والصبرِ والاحتمال، ويردَّها إلى أضدادِ هذه الصفات، فيقومُ أمرُها بعدُ على الأثرةِ والمصلحةِ والتفادي والضجَرِ والتبرُّمِ والإلحاحِ والإزعاج، ويُضعفُ معنى السلْبِ الراسخِ في نفسِها من أصلِ الفِطْرَة؛ فيتبدَّلُ حياؤُها، وفي الحياءِ ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفي الإخلاصِ ردٌّ لها عن أشياءَ أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفي قناعتِها مُحاجَزَةٌ بينَها وبين الشرِّ.

وبهذا ونحوِهِ يفسدُ ما بين الرجلِ والمرأةِ المتصنِّعة؛ فإذا أكثرُ المتصنِّعاتِ لا يكونُ منَ النساءِ مَشَاكلُ فقط، بل تكونُ من حُلولِ المشاكلِ معهُنَّ مشاكلُ أخرى...

ولُبابُ هذه القصةِ أنَّ النبيَّ ﷺ يجعلُ نفسَهُ في الزواجِ المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ كما هو دأْبُهُ في كلِّ صفاتِهِ الشريفة، فهو يُريدُ أنْ تكونَ زوجاتُهُ جميعاً كنساءِ فقراءِ المسلمين، لِيكونَ منهُنَّ المثَلُ الأعلى لِلمرأةِ المؤمنةِ العاملةِ الشريفةِ التي تَبْرَعُ البراعةَ كلَّها في الصبرِ والمجاهدةِ والإخلاصِ والعِفَّةِ والصراحةِ والقناعة، فلا تكونُ المرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لِتتمَّ بها في الخيال، ولكنْ إنسانيةً تطلبُ كمالهَا الإنسانيَّ لِتتمَّ بهِ في الواقع.

وهذه الزينةُ التي تتصنعُ بها المرأةُ تكادُ تكونُ صورةَ المكرِ والخِداعِ، والتعقُّد، وكلّما أسرفَتْ في هذه أسرفت في تلك، بَلْهَ الزنيةُ لِوجهِ المرأةِ وجِسمِها سلاحٌ من أسلحةِ المعاني: كالأظافرِ والمخالبِ والأنياب، غيرَ أنَّ هذه لوحْشِيةِ الطبيعةِ الحيَّة المفترسة، وتلك لوحشيةِ الغريزةِ الحيَّة التي تُريدُ أنْ تفترس. ولا تُنْكِرُ المرأةُ نفسُها أنّ الزينةَ على جسمِها ثرثرةٌ طويلةٌ تقولُ وتقولُ وتقول...

وإنَّما يكونُ أساسُ الكمالِ الإنسانيّ، في الإنسانِ العاملِ المُجاهد: لا يحصُرُ نفسَهُ في شيءٍ يُسمَّى متاعاً أو زِينة، ولا يقدّر نفسَهُ بما يجمعُ لها أو بما يجمعُ حولَها، ولا يعتدُّ ما يكونُ من ذلك إلَّا كالتعبيرِ من عملِ الشهواتِ عن الشهوات.

ونبيُّنا ﷺ هو الغايةُ في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بن الخطاب، فإذا هو على حَصيرٍ وعليهِ إزارُهُ وليسَ عليهِ غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جنبِه. قال عمر: وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعير نحو الصاع، وإذا إهابٌ معلَّق، فابتَدَرَتْ عيناي، فقال: ما يُبكيك يا ابنَ الخطَّاب؟ قال عمر: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبِك، وهذه خزائنُكَ لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصرُ في الثمارِ والأنهار وأنت نبيُّ اللهِ وصفوتُهُ وهذه خزائنُك؟

وجاءَ مرة من سفَر فدخل على ابنتِهِ فاطمةَ (رضي الله عنها) فرأى على بابِها سِتْراً وفي يديها قُلبَيْنِ من فِضَّة، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهي تبكي، فأخبرَتْهُ برجوعِ أبيها، فسألَهُ في ذلك فقالَ ﷺ : من أجلِ السترِ والسِّوارين.

فلمَّا أخبَرها أبو رافعٍ هتَكتِ السترَ ونَزَعَتِ السوارينِ فأرسلَتْ بِهِما بِلالاً إلى النبيّ ﷺ وقالت: (قد تَصدَّقْتُ بِه، فضعْهُ حيثُ تَرى). فقال لِبلال: ﴿ اذهبْ فبِعْهُ وادفعْهُ إلى أهلِ الصُّفَّة ﴾. فباعَ القُلبينِ بدرهمينِ ونصفٍ (نحو ثلاثةَ عشرَ قرشاً). وتصدَّقَ بِهِ عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنتِ أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ حِليةً بدرهمينِ ونصفٍ وإنَّ في المسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلَها.

أيُّ رجلٍ شَعْبيٍّ على الأرضِ كمحمدٍ ﷺ ، فيهِ لِلأمةِ كلِّها غريزةُ الأب، وفيه على كلِّ أحوالِهِ اليقينُ الذي لا يتحوَّل، وفيهِ الطبيعةُ التامةُ التي يكونُ بها الحقيقيُّ هو الحقيقي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةً بدرهمينِ ونصف، لا تكونُ زينةً في رأي الحقِّ إذا أمكنَ أنْ تكونَ صَدَقةً بدرهمينِ ونصف؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنًى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ الجماعة، وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريّ قد جارَ على ما هو الضروري؛ وفيها خطأٌ من الكمالِ إنْ صحَّ في حِسابِ الحلالِ والحرام لم يصحَّ في حسابِ الثوابِ والرحمة.

تعالَوْا أيُّها الاشتراكيُّونَ فاعرِفوا نبيَّكمُ الأعظم؛ إنَّ مذهبَكم ما لم تُحْيِهِ فضائلُ الإسلامِ وشرائعُه - إنَّ مذهبَكم لَكالشجرةِ الذابلةِ تُعلِّقون عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيط... كلَّ يومٍ تَحِلُّون، وكلَّ يومٍ تربطُون، ولا ثمرةَ في الطبيعة.

ليسَتْ قصةُ التخيير هذه مسألةً من مسائلِ الغَني والفقيرِ في معاني المادةِ ولكنَّها مسألةٌ من مسائلِ الكمالِ والنقصِ في معاني الروح؛ فهي صريحةٌ في أنَّ النبيَّ ﷺ أستاذُ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ واجبُهُ أنْ يكونَ فضيلةً حيَّةً في كلِّ حياة، وأنْ يكونَ عزاءً في كلِّ فقْر، وأنْ يكونَ تهذيباً في كلِّ غِنى، ومن ثَمَّ فهو في شخصِهِ وسيرتِهِ القانونُ الأدبيُّ لِلجميع.

وكأنَّهُ ﷺ يُريدُ لِيُعَلِّمَ الأُمَّةَ بهذهِ القصةِ أنَّ الجماعاتِ لا تَصلُحُ بالقوانينِ والشرائعِ والأمرِ والنهي، ولكنْ بعملِ عظمائِها، في الأمرِ والنهي؛ وأنَّ الحاكمَ على الناسِ لا ينبغي أنْ يحكمَ إلَّا إذا كانَ في نفسِهِ وطبيعتِهِ يُحسُّ فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّطِ لا الخاضِع، لِيكونَ أولُ استقلالِهِ استقلالَ داخِلِه.

فليسَ ذلك فقْراً ولا زُهداً كما ترى في ظاهرِ القصة، ولكنَّها جُرْأَةُ النفسِ العُظمَى في تقريرِ حقائقِها العمليَّة.

وتنتهي القصةُ في عبارةِ القرآنِ الكريم بتسميةِ زوجاتِهِ ﷺ : **"أمَّهات المؤمنين"** بعدَ أنِ اختَرْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرة؛ وعلماءُ التفسيرِ يقولون: إنَّ اللهَ (تعالى) كافأهُنَّ بهذه التسمية؛ وليسَ ذلك بشيءٍ ولا فيهِ كبيرُ معنًى، وإنّما تُشْعِرُ هذه التسميةُ بمعنًى دقيقٍ هو آيةٌ من آياتِ الإعجاز؛ فإنَّ الزوجةَ الكاملةَ لا تكملُ في الحياةِ ولا تكملُ الحياةُ بها إلَّا إذا كانَ وصْفُها مع رجُلِها كوصفِ الأمْ: ترى ابنَها بالقلْبِ ومعانيه، لا بالغريزةِ وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذٍ مُمكنةُ السعادةِ لِهذه الزوجة، وكلُّ شقاءٍ محتمَلٌ بصبر، وكلُّ جِهادٍ فيهِ لذتُهُ الطبيعيَّة، إذْ يقومُ البيتُ على الحُبِّ الذي هو الحُبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينةُ الحياةِ وجودَ الحيِّ نفسِهِ لا وجودَ المادة، وتُبْنَى النفسُ على الوفاءِ الطبيعيِّ كوفاءِ الأمْ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليهِ في سبيلِ حقيقتِهِ أنْ يتغلَّبَ على الدنيا وزينتِها.

وآخِرُ ما نستخرجُ مِنَ القصةِ في درسِ النبوَّةِ هذه الحكمة:

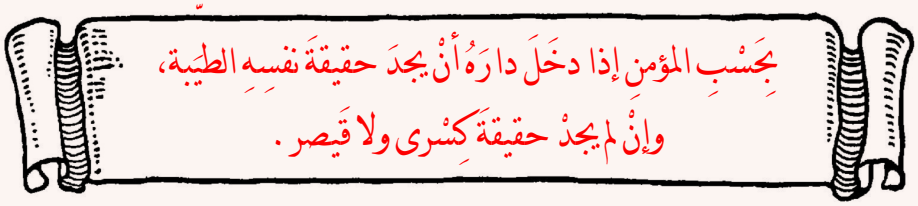

المرأةُ الملحدة..

قصةُ مأساة!!

بقلم م. أميرة الجلباب

هندسة اتصالات وإلكترونيات، وباحثة في قضايا المرأة

عجبتُ لهذا الأمر!

هل رأيتم مكانةَ المرأة في أي مذهبٍ من المذاهب تنال قدرًا من التشويه والانتقاصِ على مستوى العالَم كما تنالُه في دين الإسلام؟

ورغم ذلك ثَمّ ظاهرةٌ مُلفتة..

وهي أن النساء يُقبلن على اعتناقِ الإسلام من كل بقاع الأرض ومذاهبِها زرافاتٍ ووحدانا!

كيف صمدت هذه المكانةُ هذا الصمودَ لولا قوةٌ وسموٌّ فيها لم يجعلا للطاعنين إلى الإجهاز عليها سبيلا؟! ..

إذ كان من المفترضِ أن تندثرَ هذه الظاهرةُ وتنقرضَ تمامًا منذ زمنٍ بعيد، تحت ضغط التشويهِ والافتراء، ومعاول السخرية والازدراء، والدعمِ الإعلامي والمادي الكبير..

كيف لا زالت تنبض بالحياة؟..

ولماذا كانت -ولا زالت- مكانةُ المرأةِ في الإسلام أحدَ أهمِّ عواملِ الجذبِ للنساء فيه، على اختلاف مستوياتِهن العلميةِ والثقافيةِ والاجتماعية؟

لأن الحقيقةَ - بعد طرح الحقدِ والتزييفِ عنها – هي: أن مكانتَها في الإسلام عالية، وحقوقَها متميزة، والحكمةُ في تشريعاتِه بالغة..

لذا لم تسقط هذه المكانةُ رغم كلِّ محاولاتِ الإسقاطِ والطعن التي تنالُها؛ لأن قوتَها حقيقية، ومصادرَ التشريعات فيها ربانية، وحياتُها باقيةٌ بقاءَ الإسلامِ إلى قيام الساعة! ..

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

[التوبة:٣٢]

لذا كان من الغَبن الفاحشِ عَقدُ مقارنةٍ بين مكانة المرأةِ وحقوقِها في الإسلام وبين أيِّ مذهبٍ آخرَ على وجه الأرض، تلك المذاهبُ التي هي إما قد حُرِّفت وإما هي مِن صُنع البشر، فكيف يكونُ الأمرُ إذا كانت المقارنةُ بين ما تربَّع على القمة، والإلحادِ الذي التصق بالقاع!

ففي الوقت الذي فشل فيه أنصارُ نظريةِ التطورِ في الحصول على أيِّ آثارٍ لهذا الكائنِ الخرافيِّ الذي يُمثلُ حلقةَ الوصلِ المفقودةِ بين الإنسان والحيوان في العصور السحيقة، إلا أنهم قد نجحوا اليومَ أخيرًا في إيجادِ نماذجَ ممسوخةٍ ممن طُمست بصيرتُهم وانتكست فطرتُهم الآدميةُ حتى صاروا أدنى في المرتبة من الحيوان نفسِه!

وإنِ امرأةٌ وقفت تتأملُ صورتَها ومكانتَها في الإسلام بعد أن دخلت فيه، ورأت صورةً أبدعَ ما تكونُ كالمرآةِ مصقولةً، دون زيفٍ أو غَبَش، لَتشمئِزُّ حين ترى الإلحادَ على الجانب الآخرِ واقفًا على أرضٍ زَلِقة، عاريًا من كل فضيلة، مفلسًا من كل قيمة، لا يملك شيئًا إيجابيًا واحدًا يُغري امرأةً سويَّة بالسقوط فيه!

الإلحادُ بالنسبة للمرأة لصٌّ دنيءٌ رأسُ مالِه "السلب"، وقِوامُ حياتِه "النفي"، نفيُ وجودِ الرب، ونفيُ العبادة، ونفيُ القيمِ والمبادئِ والضوابطِ والواجبات!!

فإذا اجتمع كلُّ مسلوبٍ من الأديان وبقي المكانُ خاليًا قام هنالك الإلحاد!

وإذا انتفى كلُّ شيءٍ جميلٍ من الحياة وبقي هناك شيءٌ واحدٌ بعد هذا فهو الإلحاد!

إنها المأساةُ حين تتجسدُ في أبشع صُورها..

لم يعطِ الإلحادُ للمرأةِ أيَّ شيءٍ إيجابي، في الوقت الذي سلب فيه كلَّ شيء!

تبدأ قصةُ المأساةِ من أصل الخَلق..

فإن المرأةَ في الإسلام إنسانٌ من بني آدم، منسوبٌ في الأصلِ إلى البشر، تتمتعُ بكافة المقوماتِ الإنسانية منذ بدءِ الخليقة، تنحدرُ هي والرجلُ من أصلٍ بشري، لم يتخلفْ أحدُهما عن الآخر، استخلفها اللهُ تعالى في أرضِه كما استخلَف الرجل!.. وكان وجودُ التباينِ بين المرأةِ والرجلِ لازمًا لترتيباتٍ أبدعها اللهُ تعالى لمصلحة البشرية..

إذا اجتمع كلُّ مسلوبٍ من الأديان وبقي المكانُ خاليًا قام هنالك الإلحاد!

وإذا انتفى كلُّ شيءٍ جميلٍ من الحياة وبقي هناك شيءٌ واحدٌ بعد هذا فهو الإلحاد!

بينما نجدُ الإلحادَ أول ما نَطق وتكلم عن المرأة؛ احتقرها وجاء بمصيبةٍ كبيرة، وأخبرنا أن أصلَها حيوانٌ بلا فخر!!

وبهذه البداية المخزيةِ ظلت الوصمةُ البهيميةُ ملازمةً للمرأةِ الملحدةِ طيلةَ حياتِها!!

ودليلُهم الوحيدُ على هذا الأصل؛ هو ادعاءُ "دارون" أن وجودَ التشابهِ يعني "وِحدة الأصل"، وللأسف لم "تتطور" عقولُهم عن هذا الظن أبدًا، لتضعَ بجانبه احتمالاً آخرَ وهو أن وجودَ التشابهِ يعني "وِحدة الخالق".. وظلت هذه العقولُ "متحجرة"!..

وليت الإلحادَ اكتفى بهذه الطلةِ المقيتةِ وسكت، بل استطرد في فصولِ المأساة، مؤكدًا تخلُّفَ المرأةِ

"الطبيعي" خلالَ سُلَّمِ التطور "المتكسِّر السلالم"!، ليُقرَّ صراحةً بدونيتِها، فعلى ضوءِ نظريةِ النشوءِ والارتقاءِ لداروين ﴿ **بقيت المرأةُ في مرحلةٍ أكثرَ بدائيةً في عملية الارتقاء، وعلى حدِّ تعبير دارون: لقد ساد الرجلُ على المرأةِ في نهاية الأمر** ﴾[١].

مما أوقع هذه النظريةَ في مأزقٍ آخرَ لا مفرَّ منه، وهو تَبَنيها للثقافةِ "الذكورية"، والتمييزِ ضدَّ المرأةِ بالمفهوم الحديث، إذ أن هذا ﴿ **التأويل السابق يُعتبر بمثابة تَخلُّفِ المرأةِ (الطبيعي)، مما أصاب المرأةَ بِمُركب نقصٍ دائم** ﴾[٢].

ووجودُ هذا التمييزِ ضدَّ المرأةِ في ظل نظريةِ التطور، يدفعُنا للتساؤلِ حول حقيقةِ وجودِ علاقةٍ سببيةٍ بين هذا التمييزِ والعنصريةِ وبين وجودِ دَورٍ كبيرٍ للمرأةِ في نسفِ نظريةِ التطور، حيث أن وجودَ المرأةِ قد كلف النظريةَ بعض الأسئلةِ الحرجةِ التي وضعَتها في مأزقٍ حقيقي، مثل: كيف ظهر نوعُ الأنثى في بدايةِ سُلمِ التطور؟!، ما هي المرحلة التي سبقت ظهور الزوجين الذكر والأنثى؟ ما هي الآليات التطورية الانتقائية التي سمحت لذلك الكائن الخرافي بعدما كان واحدًا أن ينقسم إلى اثنين، ذكر وأنثى؟!، ومن ثم قرر كل منهما بإعطاء نصف ما لديه من مورثات لتتحد مع النصف الآخر؟!..

ما تفسيرُ وجودِ الشعرِ الطويلِ مثلاً على شارب وذقن الرجل واختفاؤه عند المرأة ؟!..

ما هي الفائدةُ الوظيفيةُ لغشاءِ البكارةِ الذي لو كان له قيمةٌ وظيفيةٌ غيرَ المتطلب الأخلاقيِّ لكان من المفترض أن يظل مرتبطًا بالأنثى طيلةَ حياتِها؟!.. وغير ذلك من مثل هذه الأسئلةِ الكثيرةِ الحائرةِ التي لم نجدْ لها الأجوبةَ المنطقيةَ حتى الآن!

وتحت مزيجٍ من شعور المرأةِ بهذه الدونيةِ في أصل الخلق، والدونيةِ في التطورِ الطبيعي، والتمييزِ ضدَّها، يتجمعُ شعورٌ خانق بالسخطِ لدى المرأةِ الملحدةِ ومن ثَم إعلانُ الحربِ على تلك الطبيعةِ التي أوجدتها - على حد زعمِهم - والتذمرِ بحُكمِها، وبالنوعِ البشري الذي اختارته لها، وهذا المزيجُ من مشاعرِ عدم الرضا أدّى إلى ظهورِ مشكلاتٍ نفسيةٍ معقدةٍ لدى المرأةِ الملحدة، ورغبةٍ داخليةٍ عارمةٍ في الثورة، والتخلصِ من هذا النوعِ الذي فرضته عليها الطبيعةُ من غير اختيارها..

> يُقدِّم الإلحاد المرأة على أنها: من أصول حيوانية، بقيت أكثر بدائية في عملية الارتقاء، ونظراً لتخلفها الطبيعي هذا عن الرجل، أصيبت المرأةُ بِمُركب نقصٍ دائم !!!!

تُلقي هذه العقدُ النفسيةُ الخانقةُ المرتكزةُ في منطقة اللاوعي بآثارِها على السلوك، فتبدو مظاهرُها في صورةِ محاولاتٍ دؤوبةٍ لمحاكاةِ الرجل، وأمنياتٍ مكبوتةٍ أن تكون من هذا النوعِ الذكوري، من خلال المطالبةِ بالمساواةِ معه في كل شيء، وفي بعض المراحلِ المتقدمةِ من هذا التذمرِ يسعى بعضُهن للتحكم في الجينات للتخلصِ من عقبة الفروقِ البيولوجيةِ بين النوعين.. بالإضافة إلى ظهورِ الحقدِ نحو النوع

الآخر (الذكور)، حتى سعى بعضُ المناصرينَ لهذه الفكرةِ للدعوة إلى إلغاء أيِّ تمييزٍ يتميزُ به الذكرُ عن الأنثى!

﴿ يُعربُ المتطرفونَ من أنصار الحركةِ النسائيةِ الجديدةِ عن تذمرهم من الوضعِ الراهن، وهم ينادون بإجراءِ تعديلٍ في الفروقات الجسدية ليتسنى للجنسين التحررُ من أسرِ القيودِ والواجباتِ التقليدية.. وهم يقولون: إن الفكرةَ – القائلةَ بأن الرجلَ شخصٌ يكسب العيشَ وأن المرأةَ تُدبرُ شئونَ البيت- هي فكرةٌ سخيفةٌ وبالية، وأنها تُلحق الضررَ بالجنسين معا، ويرى هؤلاءِ المتطرفونَ أن المجتمعَ وحدَه ليس عقبةً في سبيل تحقيقِ أهدافِهم، وإنما هناك الحدودُ البيولوجيةُ التي تُشكل أكبرَ العقبات، ولأجلِ ذلك يدعو البعضُ منهم إلى استخدامِ علم تحسينِ خواصِّ الجنسِ البشري Eugenics لأجلِ إدخالِ تعديلاتٍ في شفرةِ الوراثةِ (المورِّثات/ الجينات) لتؤدي إلى توالدِ نوعٍ جديدٍ من النساءِ والرجال ﴾، و **﴿ يشيرُ مقالٌ نُشر في المجلة السوفييتيةِ سيوتنيك "عدد أكتوبر ١٩٨٧" تحت عنوان: "هل يمكنُ للآباءِ أن يتحولوا إلى أُمهات؟"، إلى أن طبيبًا ألمانيًا تقدم بنظريةٍ عن تغيير الجنس، تدعو إلى استخراجِ رحمِ المرأةِ وزرعِه في بطنِ الرجل، ليقومَ هو أيضًا بمهمة الإنجاب، وبذلك يُمكن إنهاءُ عدم المساواةِ التي فرضتها الطبيعةُ بين الجنسين! ﴾**[٣].

وعلى الجانب الآخر من هذه الصورة الشاذة البشعة؛ تتمتع المرأة في ظل الإسلام بالاستقرار النفسي والسلام الداخلي، مع شعور غامر بالرضا عن النوع البشري الذي وهبها الله تعالى إياه، من غير تذمر أو جحود، كيف لا وهو القائل سبحانه:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

[النساء:٣٢]

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى..

الهوامش:

[١] مجلة تايم، ٢ مارس ١٩٨٧، ص٤٢، نقلا عن "المرأة بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية"، وحيد الدين خان.

[٢] "المرأة بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية"، وحيد الدين خان، ص ٣٠٩.

[٣] المصدر السابق، ص٧٥.

تَعَرِّي اللا دينية العربية

Arabian Irreligious Striptease

حار القاضي بين تقيين !!

عن الشعبي قال: جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما: اشتريت من هذا داراً فوجدت فيها عشرة آلاف درهم فقال: خذها. فقال له: إنما اشتريت الدار. فقال للبائع: فخذها أنت فقال: ولم؟ وقد بعته الدار بما فيها. فأدار الأمر بينهما فأبيا فأتى زياداً فاخبره فقال: ما كنت أرى أن أحداً هكذا بقي. وقال لشريح: ادخل بيت المال فألق في كل جراب قبضة حتى تكون للمسلمين .

ما صنعتَ شيئا !

لطم رجلٌ الأحنفَ بن قيس! فقال له: لم لطمتني؟! قال: جعلوا لي جُعلا أن ألطم سيدَ بني تميم! فقال له أخطأت، سيدُ بني تميم جارية بن قدامة، فانطلق الرجلُ إلى جارية فلطمه! فأخرج جارية سكيناً من خُفِّه وقطع يد الرجل، وذلك ما أراده الأحنف! فقالوا: (قطعه الأحنف).

من طرائف البِدَعْ

البدعة .. لم يخلوا منها عصر من عصور الإسلام، وكما كان لعلماء المسلمين منها موقف المحذر والناصح والقامع، فقد كان من ضمن مواقفهم تلك موقف الطرافة. فمن ذلك أنه قيل لابن سيرين: (من أكل سبع رُطبات على الريق سبّحت في بطنه!) فقال: إن كان هذا حقاً فينبغي للّوزينج (حلوى فارسية) إذا أُكِل أن يُصلي التراويح.

والشعبي من أئمة الحديث سأله رجل في مجلسه عن حديث: (تسحروا، ولو أن يضع أحدكم إصبعه على التراب ثم يضعه في فيه) وقال: أي الأصابع؟ فتناول الشعبي إبهام رجله وقال: هذه !!!! وإنما فعل الشعبي ذلك ليشير إلى عدم صحة الحديث.

ومن طريف البدع ما روي عن الفقيه عمرو بن قيس فقد سأله رجل عن حصاة المسجد، يجدها الإنسان في خفه أو ثوبه أو جبهته، فقال له عمرو: ارْمِ بها. فقال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى تُردّ إلى المسجد. فقال عمرو: دعها تصيح حتى ينشق حلقُها. فقال الرجل: أوَلها حَلق؟! فأجابه عمرو بطرافة: فمن أين تصيح إذن!

سؤال العدد

مبدأ عقلي منطقي يعتبر من ضرورات المعرفة والبديهة والحس الذي يتفق عليه العقلاء في كل زمان ومكان. يُستخدَم في دراسة العلاقات بين الأشياء، أو في الاستدلال بالشاهد على الغائب، وتعتبر جميع المعارف البشرية التجريبية قائمة على أساسه، وتفسّر الحقائق العلمية على ضوئه جوابا على السؤال المنطقي الجوهري: (كيف)؟

خاطب به القرآن الكريم عقل الإنسان في عدة مواضع ليقوده للإيمان بالله كقوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾. ولهذا كله يُعتبر هذا المبدأ من ألد أعداء الإلحاد، لأنه يهدم أساساته بالكلية.

فما هو هذا المبدأ العقلي اليسير في مفهومه الكبير في أثره؟

جواب سؤال العدد السابق:

الطاووس

العبارة التي ذكرها داروين في أحد رسائله هي:

((إن منظر الريش في ذيل ذكر الطاووس كلما تمعنت فيه يصيبني بالصداع))

حوار موحد وملحد 3

بطلان التسلسل في الفاعلين

بقلم الأستاذ أبي الفداء

الملحد: إنَّ قولَكم بأن اللهَ خالقُ كلِّ شيء قولٌ يُفسده السؤال: "فمن الذي خلقَ الله"

المسلم: كلا، لا يُفسده، لأننا نقولُ بأن كلَّ كيان يتصف بصفة الخلق ويتصفُ كذلك بأن له مَن خَلقه فهو كمخلوقاتِه مخلوق .. وكلُّ صانعٍ يوصفُ بأنه صانع وبأن له مَن صَنعه فهو مثلُ صَنعتِه مصنوع! وهذا حالُ سائرِ الكائنات التي لها قدرة على الخلق والتصنيع -وهو في حقها تحويل من مخلوق إلى مخلوق وليس إحداثا من عدم- في دائرةِ هذا الكونِ المخلوق.. فهل هذا القولُ يَلزم منه امتناعُ وجودِ خالقٍ أعلى خارجَ هذه الدائرة، لا خالقَ له ولا صانعَ له ولا كفؤ، يكون هو أصلُ الأمرِ ومبدأُه؟؟

كلا! بل إن هذا الخالقَ واجبُ الوجودِ عقلا، فهو نهايةُ تلك السلسلةِ التي لا يستقيمُ للعقلِ انتهاؤها إلا بها! فنحن إنما نتكلمُ عن ذاك الخالقِ الذي ليس بمخلوق، والذي هو خارجٌ عن هذا النظامِ جملةً وتفصيلاً فلا تسري عليه قواعدُه، ولا يُقاسُ بما فيه من خالقينَ مخلوقين، فهي قواعدُ كان هو من أنشأها في هذا الكونِ وبدأَها بخلقِه وقدرتِه بالأساس!

فالشيءُ المخلوقُ لا يخلقُ نفسَه، فلا بُد أن يخلقَه غيرُه، ولا بُد -عقلا- لهذه السلسلةِ أن تنتهيَ عند موجدٍ أول، خالقٍ أول، لم يخلقْه شيء، وليس بداخلٍ في تلك السلسلةِ كحلقةٍ منها أصلا، بل هو الذي خلق السلسلةَ كلَّها بما فيها، فلا هو منها ولا تَحدُّه حدودُها ولا تنزلُ عليه نواميسُها!.. فذاك هو اللهُ الخلاقُ العليم..

الملحد: فإن كان لا تتنزلُ عليه نواميسُها كما تقولون، ولا تدركُه حواسُّنا، فكيف نطالبُ بأن تتصورَه عقولُنا وتؤمنَ به قلوبُنا؟

المسلم: العقلُ قادرٌ على تصورِ المعنى، لا الكيفَ والحقيقة، والفرقُ بينهما فرقٌ جوهريٌّ لكل عاقل! فأنا أُدركُ بعقلي إمكانَ وجودِ بلايينِ البلايينِ من الكواكبِ في مجراتِ الكونِ الفسيح .. ولكن هل عقلي يضبطُ لكيفيةِ ذلك أو لهيئتِه تصورا؟ هل يمكنني تصورُ نسبةِ حجمي أنا إلى حجم هذه الأرضِ وحدَها فضلاً عما هو أضخمُ منها وأفسحُ من الأجرامِ والأفلاكِ مِن حولِنا؟ كلا! أنا أعلمُ بوجود الروحِ التي في الأجسادِ والتي بزوالِها

يموت الإنسانُ الحيُّ، وعقلي يُقرُّ بضرورةِ وجودِها من حيثُ معناها وصفتِها، ولكن هل أتصورُ بعقلي شيئاً عن حقيقتِها وكيفِها، وهل يمكنني قياسُها أو تقديرُها رياضيا؟ كلا!

وهذا هو الفرقُ بين المعنى الذي يُحيلُه العقلُ ويمنعُه من الأساس، وبين المعنى الذي لا يُحيلُه العقلُ ولكنه لا يمكنُه قياسُ صفتِه على شيءٍ مُدرَكٍ يناظرُه، في كيفِه أو حقيقتِه، فتحارُ العقولُ في تصورِه معَ إقرارِها بصحة معناه وإمكانِ - أو وجوبِ - وجودِه!

فلو تأملتَ عقيدةَ النصارى في ثالوثِهم مثلا، لَتبين لك هذا الفرقُ الدقيق.. فهم يؤمنون بشيءٍ في حق الذاتِ الإلهيةِ يستحيلُ وجودُه عقلا من جهةِ المعنى نفسِه! فلا يمكنُ أن يكون الواحدُ ثلاثةً والثلاثةُ واحدًا عقلا! وهذا ما يجعلُ لكم أيها الملاحدةُ عليهم ظُهوراً في إبطالِ ثالوثِهم من أساسِه! ولكن إن جئتم إلى معتقدِ الموحدينَ المسلمينَ في ربِّهم، فإنكم لا تجدون عليهم سبيلاً في عقيدتِهم في ذاتِ وصفاتِ ربِّهم، ولا نرى منكم إلا التذرعَ بأنكم لا تدركون هذا الربَّ ولا يمكنكُم قياسُه على ما تدركون - وكأن ذلك مؤداهُ استحالةُ وجودِه عقلا كما هو الحالُ مع الثالوث!! - وبأنه "مخرجٌ سهلٌ من المشكلة" - وكأن سهولةَ معتقدِ الموحدينَ في الغيبِ مما يُدانون به وتدلُّ على بطلانِه!- وبأنه لا يمكنُ لموجودٍ ألا يخضعَ لقوانين الكون!! - فكأنكم سافرتم إلى ما وراءَ الكونِ فرأيتم أنه لا شيءَ غيرُه وراءَه، فلا يمكنُ أن يكون في الوجود إلا مثلَ ما أنتم خاضعون له في كونِكم هذا!!

فالفرق بيننا وبينكم أننا نَقبلُ ما تدلُّنا عليه كلُّ زفرةِ نَفَسٍ في أجسادِنا، وكلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الكون المحكمِ من حولِنا، فلا ننسبُ موجدَه وخالقَه إلا لخالقٍ أكبرَ منه، خارجٍ عنه، لا يقاسُ في ذاتِه أو صفاتِه على شيءٍ مما فيه! أما أنتم فلفسادِ عقولِكم وتصوراتِكم، أبيتم إلا نفْيَ ذلك الصانعِ أصلاً وإنكارَ وجودِه جملةً واحدة، أو وضْعَ شيءٍ مصنوعٍ حقيرٍ في مكانِه - كالجينات - لا لشيءٍ إلا لتتمكنوا من إدراكِ كيفيتِه، وكأن عقولَكم هذه- التي لو قُدِّرَ لها أن تفهمَ كلامَ القردةِ لسمِعَتْ ذمَّها إيَّاكم- لا تقبلُ إلا ما يمكنُها تصورُ طبيعتِه وكيفيتِه بقياسِه على مثيلٍ أو نظير ! فأخبِرني أيها الملحدُ! إنَّك لتؤمنُ بأن للكون حداً ينتهي عندَه، أوَليس كذلك؟

الملحد: بلى!

المسلم: عظيم! مع أنَّ هذا الذي حسبوا قُطْرهُ إنما هو الكونُ المرئيُّ المشاهَدُ وليس الكونُ كلُّه، وذهبوا إلى أنه ماضٍ في التمددِ باطراد! وليس هذا شأني ولكن سؤالي لك: هل عندك فيما ترى في هذه الدنيا ما يمكنُك أن تقيسَ عليه حدَّ الكونِ الذي ينتهي عنده؟ بمعنى: هل رأيتَ في الدنيا ما يعينُك على تصورِ كيف يكون ذلك الحدُّ الذي قبْلَه مادةُ الكون، وبعدَه شيءٌ آخرُ لا تعلمُه ولا يمكنُك تصورُه، ولا يمكنُك إلا الإقرارُ بوجودِه هناك، أيًّا ما كان ذلك الشيء؟؟

الملحدُ يصمتُ متأملا، ثم يقول: لا شكَّ أن ما بعد الكونِ فراغٌ وعدمٌ لا نهائي!

المسلم: لا شك أنك كاذب! أتدري لماذا؟

الملحد: لماذا؟

المسلم: لأن الذي يبني اليقينَ والجزمَ "بقولِه لا شك" على افتراضٍ لا يدري له دليلا عقليا ولا حِسيا كاذبٌ!

وعلى أيِّ حالٍ فالذي أَعنيه أن هناك وراءً للكون خارجاً عنه، وأنت لا يمكنُك أن تتصورَ كيفَه أو طبيعتَه أيًّا كان، مع أنك تُقرُّ عقلاً بإمكان وجودِه وضرورةِ وجودِ كيفيةٍ فيه مغايرةٍ لما في داخل الكون، وإلا لما أمكن القولُ - لغةً - بأن الحدَّ الفاصلَ هذا ينتهي عندَه الكون! أليس كذلك؟

الملحدُ لا يجيب!

المسلم: فلماذا إذاً تصرُّ على أن مجرد عجزِك عن تَصورِ كيفِ وذاتِ الإلهِ -التي نؤمن نحن بأنها تعلو وتسمو فوق السماواتِ والموجوداتِ كلها، وهي صفاتٌ لا يقبلُ العقلُ نفيها في حقِّه، ولا تقاسُ على شيءٍ من خلقه- دليلٌ على استحالةِ وامتناع وجودِه؟!

الملحدُ بِخُبث: ومن قال أننا نزعمُ استحالةَ وجودِه؟ ليس كذلك! ولكنه في نظرِنا لا يزيدُ على فكرةٍ نظرية، غيرُها من الأفكار أولى بأن يكون هو الحق!!

المسلم: لعلك تقصدُ فكرةَ داروين؟

الملحد: نعم!

المسلم: لماذا؟

الملحد: لأن كلَّ ما فيها من افتراضاتٍ مبناهُ أمورٌ مشاهدةٌ يمكن لنا أن نقيسَها ونُثبتَها بسهولة، ولا تنتهي بنا إلى شيءٍ غيبي!

المسلم: ليس كذلك! بل هي نظريةٌ مغلقةٌ محكمةُ الغلق، تفرضُ على العقل حِصاراً مدمراً لا يملك منه فكاكا! مَثَلُها كمَثَلِ الذي يضعُ قوماً في غرفةٍ ليس فيها إلا مقعدٌ خشبيٌّ قديمُ ومنضدة، يحبسِهم فيها ثم يقولُ لهم أنهم إن أرادوا معرفةَ تاريخَ بناءِ المبنى الذي فيه الغرفة واسمَ بانيه وسببَ بنائه لها والعامَ الذي توفي فيه - مثلا -، فما عليهم إلا إطالةُ البحثِ والتمحيصِ والتأملِ في الكرسيِّ والمنضدة!

يريدون قياسَ ما لا يُقاسُ وإدخالَه فيما علموا يقيناً أنه بضرورةِ العقل ليس داخلا فيه!

ولو خُضتُ الآن معك أيها الملحد! في مناقشةِ الداروينية، ثم رجعتُ بك إلى ما قبل "بُحيرة الحياة" التي تزعمون أن الحياةَ نشأت فيها، وحدثتُك عن الانفجارِ الكبير وما كان قبلَه، لقلت: هذا لا دخلَ له بالارتقاء، وإنما هو سؤالٌ يتعلق بالفلسفةِ أو بعلم الكونياتِ وأنا لا أُجيده، ولكل عِلمٍ من يختصُّ به!!

وأقولُ لك: إن كان إيمانُك بوجودِ خالقِك من عدمِه يتوقفُ على عِلمٍ أنت جاهلٌ به، وقد أوقفتَ عقلَك دونه لأنك لست من أهلِ النظرِ فيه، فلا أعلمُ في الأرض أجهلَ منك مهما بلغ بك علمُك!!

فسُحقاً لقومٍ ذلوا حتى اتخذوا القردةَ والنسانيسَ سلفاً لهم، وصار دأبُهم نبشَ الأرضِ بحثاً عن فضلاتِها وبقاياها!!

يقول ابن القيم في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) فصل (الاغترار بالدنيا):

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد أحسن من النسيئة.

ويقول بعضهم: درة منقودة ولا درة موعودة.

ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين للشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله. والبهائم العُجم أعقل من هؤلاء؛ فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه، وهو بين مصدق ومكذب. فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء، فهو من أعظم الناس حسرة، لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة.

جوابه: إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير. وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير. فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة؟ كما في مسند الإمام أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع؟﴾.

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟ فأيما أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له، ولانهاية لعدده، ولا غاية لأمده؟

وأما قول الآخر لا أترك متيقنا لمشكوك فيه.

فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك؛ فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له. وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته، ووحدانيته، وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله، وتجرّد وقم لله ناظراً أو مناظراً، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه، وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى ويتقدس وينزه على خلاف ما أخبرت به رسله عنه، ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه، وأنكر ربوبيته وملكه؛ إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة، أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلاً، لا يعلم شيئاً، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهي، ولا يثيب، ولا يعاقب، ولا يعز من يشاء، ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملاً. وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه؟

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه تبين له أن من عني به هذه العناية، ونقله في هذه الأحوال، وصرفه في هذه الأطوار، ولا يليق به أن يهمله ويتركه سدى، لا يأمره ولا ينهاه ولا يُعرّفه حقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه.

ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد، وأن القرآن كلامه، وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن عند قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠]، وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وأن الإنسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله. فقد بان بأن المضيع مغرور على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه، وتقدير تكذيبه وشكه.

الحمدُ لله الذي منح المُنقطعَ إلى رحمته متواترَ آلائه، وعمَّ الأَنامَ بمشهورِ نعمائِه، أحمده تعالى على إحسانه، وأشكرُه على متواتر بِرّه و امتنانِه.

والصلاةُ والسلام الأَتَمّانِ الأكملان، على نبي الهدى والرحمةِ نبيِّنا أبي القاسم محمدٍ سيدِ وَلَدِ عدنان، وعلى آلِهِ وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

وبعد ..

فلما كان الإسلامُ هو الدينُ الحق - يَعرف ذلك من يعرفُه ويجهلُه من يجهله - كان من تمام ذلك إخبارُه بجملةٍ من المغيبات فآمن بها أهلُ الإسلامِ وكفر بها مَن سواهُم مِن الملاحدةِ والوثنيينَ ونحوِهم.

فما هو الغيب؟ وكيف نعرفُه؟ وهل يجوز الخوضُ فيما لا يُعلمُ إلا بطريق الوحي الإلهي؟

الغيبُ كما عرّفه أهلُ اللغةِ والتفسير: كُلُّ ما غاب عنك من شيءٍ.

ومعرفتُه تنبني على أمرين :

١- أن يأتيَ الخبرُ الصادقُ عنه.

٢- أن يُرى - أو يُعرفَ بالأمورِ الحسيةِ كالشمِّ واللمسِ وما اتصل بذلك - بعد أن كان مُغَيبًا عنه.

وقد اقتصر بعضُ الملاحدةِ على الأمر الثاني وهو قولُهم أن إثباتَ المغيّباتِ يُبنى على الأمورِ التجريبية، وأما غيرَ ذلك فلا!

وقولهم هذا قمةٌ في الجهالة والضلالة، فإن الملحدَ نفسَه يؤمن بقضايا مغيّبةٍ عنه: بالخبر الصادقِ فقط!

وكما قيل : بالمثالِ يتضحُ المقال .

فإذا قيل له : إن صديقَك فلانٌ سيأتي الأسبوعَ القادمَ من بلاد كذا، آمن بذلك وصدّق، واستعد لاستقبالِه وتهيأ، وما ذاك إلا لإيمانِه بالخبر الصادق عن مجيئه من السفر! رغم أن هذا الأمرَ غيبٌ نسبيٌّ عنه، ولكنه لم يطلب البراهينَ والأمورَ التجريبيةَ كالتأكدِ من تذكرةِ السفرِ والحجوزات ..الخ! وبهذا يسقطُ أصلُ ضلالتِه.

فإن قال: أنا أُؤمن بالخبرِ الصادق من حيث أنه خبرٌ صادقٌ عندي ولا أُؤمن بما جاء في الكتاب والسنةِ لأنه ليس بخبرٍ صادقٍ عندي.

قيل له: فالخلافُ إذاً في طريقة إثباتِ الخبرِ الصادق، لا في الخبر الصادقِ نفسِه، وأنت نفسُك تطعنُ في الخبرِ الصادقِ ولا تعتدُّ به في إثباتِ المغيّباتِ بل تقتصرُ على الأمورِ التجريبيةِ لإثبات ذلك! فإما أن تكونَ متناقضاً جامعاً للجهل والضلالة - وهو الأقرب - وإما أن تكونَ عارفاً بذلك ولكنك تغضُّ طرفَك عنه لئلا تُفضح !

فيؤولُ الخلافُ معه في إثبات صحةِ صدقِ كلام الله تعالى وسنةِ نبيه ﷺ بما يعرفُه أُولو العلم من طرقٍ عدة -وليس المقصودُ استيفاءَ الكلامِ في إثبات ذلك فهذا له موضعٌ آخر-.

ولما كان الملاحدةُ من أعظمِ الناسِ جهلاً، وأكثرِ الناسِ في الاضطرابِ عقلاً، كان من تمامِ ذلك: أن حججَهم -كلَّها- التي يستندون إليها لتقريرِ ساقطِ كلامِهم، وفاسدِ مرامِهم، من أضعفِ الحججِ وأدناها، بحيث لا تقفُ أمامَ وجهِ الحقِّ وسلطانِه، بل غايتُها السقوطُ والاضمحلالُ بعونِ الملكِ المتعالِ.

فإن جئنا لمسألةِ الأمورِ الغيبية: نجدُ أن اللهَ تعالى قد فصّلَ بعضاً منها في كتابه وذكرَ شيئاً منها نبيُّنا محمدٌ ﷺ ، فقد جمع اللهُ تعالى في القرآن الكريم مع وجازةِ كلِمِه، وإحكامِ نَظمِه، وقواعدِ عِلمِه، وتناسُبِ آياتِه والتئامِ كلماتِه: أضعافَ ما في الكتب السابقةِ من الحِكمِ والمواعظِ والآياتِ وذكر بعضَ المغيّباتِ مع أنه معجزةٌ واحدةٌ تحتوي على أُلوفِ المعجزات، وفيه من المغيّباتِ ما أخبر تعالى بوقوعِه فوقع كما أخبر، وفيه من المغيّباتِ ما استأثرَ اللهُ تعالى بعلمِه فلا يَطَّلعُ عليه أحدٌ من خلقِه، فسبحان الله العلي القدير .

فمما هو غيبٌ عنا: حقيقةُ كيفية ذاتِ اللهِ تعالى وصفاتِه، فنحن نعلمُها من حيث ما أخبرنا به سبحانه وتعالى كإخبارِه عن نفسِه تعالى أنه عليمٌ حكيمٌ خبير، متكلم، سميعٌ بصير، استوى على عرشِه بعد خلْقِ السمواتِ والأرضِ كما أخبرَ جل وعلا، فهذا كلُّه نؤمنُ به كما

جاء ونفهمُه من حيث المحكم وهو إخبارُه عن ذلك بكلامٍ عربيٍّ مفهومٍ لا شيَةَ فيه، ونؤمن بمتشابِهِه وهو إستئثارُه تعالى بحقيقةِ وكُنْهِ هذه الصفاتِ، فالرحمةُ من المخلوق ليست هي الرحمةُ من الخالقِ جلَّ وعلا، وإن كان المعنى مفهوماً من جهة لفظ "الرحمة"، ولكن علم كيفيةَ ذلك مما اختص اللهُ تعالى به ومما استأثر بعلمه، وهكذا في سائرِ الصفاتِ فبَايَنَ الخالقُ المخلوقَ في صفاتِه، فكان هذا من الغيبِ المجهولِ الذي عَلِمنا ذِكرَه وخبرَه بالخبر الصادقِ عنه وهو ما جاء في مُحكمِ كتابِه جلَّ وعلا أو في سنة نبيِّه ﷺ فآمنا بمحكمِه وكففنا الكلامَ عن متشابِهه، فهذا غايةُ التمامِ في دين الإسلام.

وإذا جئنا لما ذكره الله تعالى عن بعض مخلوقاتِه كالملائكةِ والجن: وجدنا أن ما نعرفُه عنهم هو بالخبر الصادقِ مما لا سبيلَ لتكذيبِه: لأن الملحدَ المكذِّبَ لذلك لم يوردْ حجةً عقليةً صحيحةً في نفسِها لإبطالِ ذلك، وهيهات هيهات له أن يأتيَ بشيءٍ من ذلك ولو استظهر بالملاحدةِ أجمعينَ، وربما اتكأ على شقاشقَ ومخارقَ هلاميةٍ سرعان ما تذوبُ إذا ما قابلت صواعقَ الحقِّ المرسلةِ فتذيبُها وتصيّرُها هباءً منثوراً بحمدٍ من الله وفضل.

فإن كان ما جاء عن الملائكة لا نعرفُه إلا ما بما عرَّفنا به الخبرُ الصادقُ من الكتاب والسنة: كان الخفيُّ عنا غيبًا بالنسبة لنا، لا نعرفُ شيئًا منه إلا بالحد المذكور لنا فلا نتمحَّلُ بأقيسةٍ باطلة، أو استنباطاتٍ عاطلة، ليس عليها نورٌ وهدىً من كلام ربِّ البريةِ أو من السنةِ النبوية.

وهكذا بالنسبة للروحِ التي في أجسامِنا: وهي من أدقِّ وأقربِ الأشياءِ للنفس البشرية، بل إن بعضُ الملاحدةِ قد يتجوّزُ ويؤمنُ بالروح في قرارة نفسِه - وربما صرّح بذلك - وإن كان لم يدركْ حقيقتَها، وهنا المحكُّ الحقيقيُّ بين أنصار الحقِّ وأنصار الباطل: فإن كان الملحدُ لم يدركْ شيئًا من خصائص الروحِ بالأمور التجريبية، فكيف يُقنعُ نفسَه بصحةِ هذه الطريقة - وفسادُها من أظهرِ الأمورِ وأوضحِها لذي عينين -؟!

وإذا انتقلنا من الحديث عن المخلوقات إلى خالقِها عز وجل: فبماذا يُنكر الملحدُ وجودَه تعالى؟ رغم أن الكون كلَّه - من أولِه لآخرِه - يشهدُ بوجود خالقٍ واجبِ الوجودِ لذاتِه، تنتهي عندَه الخلائقُ، ونقيض ذلك محالٌ عقلًا، وقد استندَ بعضُ الملاحدةِ إلى شبهةٍ مُؤداها تعطيلُ وجودِ الله تعالى وهو أن التسلسلَ اللانهائيَّ ممكنٌ عقلاً، فلو فرضنا هذا التسلسلَ لأدى بنا إلى عدم وجودِ خالقٍ أو موجودٍ واجبِ الوجود لذاتِه.

والجوابُ عن ذلك أن يقال: إن التسلسلَ اللانهائيَّ المطلقَ الذي يتحدثُ عنه هؤلاءِ الملاحدة - لو مثّلنا له بالأرقام مثلاً -: بحيث تكون بدايةُ السلسلةِ غيرُ موجودة: محالٌ عقلاً، فهو وهمٌ يتوهمُه الواهمُ لأن الشيءَ مترتبٌ على ما قبلَه وما قبلَه مترتبٌ على ما قبلَه ...الخ فإن استمر التسلسل إلى ما لا نهايةَ فهذا يعني أن أولَ السلسلةِ التي ترتبت عليها الأرقام - مثلا - غيرُ موجود وهذا يُبطل وجودَ السلسلةِ أصلا في أجزائها، ولمّا كنا نعاينُ أجزاءَ السلسلةِ في الحقيقة وجبَ المصيرُ إلى قَطْعِ التسلسلِ اللانهائيِّ والانتهاءِ بموجودٍ واجبِ الوجودِ لذاتِه ينقطعُ عندَه التسلسلُ ليكون إسنادُ السلسلة إلى موجودٍ لا إلى معدوم.

وليس معنى عدمُ قدرتِنا على الوصولِ إلى أولِ السلسلة: عدمُ وجودِها! فهذا لا يقوله عاقل، ففرقٌ بين الوصولِ لبدايةِ السلسلة وبين وجود بدايةِ السلسلة، فالأولُ لا يمكنُ بالنسبة لنا والثاني ممكن.

ثم إن العقلَ الصحيحَ يشهدُ أن ما من شيءٍ إلا وله مُحدِث: فهذه السيارةُ هل ظهرت فجأةً دون سابقِ إحداثٍ من محدِث؟ أم أحدثَها مُحدث؟ وهل الأكلُ الذي تأكلُه في المطاعمِ والطاولةُ والكرسيُّ الذي تجلسُ عليه ..الخ كلُّ هذا حدثَ دون مُحدث؟

فإن قلت: لا! وجب المصيرُ إلى هذا في الإنسان أيضًا وفي كلِّ مخلوق.

فتمامُ الأمر: وجودُ مُحدِثٍ لهذه الأشياءِ، ولا يمكن القولُ بأن هذا كلُّه نشأ من عدمٍ لوحدِه لأنك أصلا لا تُقرُّ بأن السيارةَ نشأت لوحدِها من عدمٍ ، بل تُقرّ بأن الإنسان قام بصناعتِها وتشكيلِها فإما أن يكون الجميعُ من بابٍ واحدٍ وإلا لزم التناقض!

بقي الكلامُ على مسألة الخوض فيما لا يُعلمُ إلا بطريق الوحي الإلهي:

فهذه المسألةُ واضحةٌ في دين الإسلام، وقد أوضحها العلماءُ الثقاتُ في مصنفاتِهم كثيراً جدا، فلا يجوز الخوضُ فيما لا يُعلمُ إلا بطريقِ الوحي الإلهي قولاً واحداً عندهم، لأن هذا من التقوُّلِ على الله تعالى، ولمّا كان عِلمُنا محدوداً، وتفكيرُنا وعقولُنا محددةً بحدودٍ لا يمكنُ البتةَ تجاوزَها: كان الخوضُ في مثل هذه المسائل ممنوعٌ شرعاً، فهذه أمورٌ توقيفيةٌ لا تنبني على رأي فلانٍ أو اجتهادِ علان.

أما عند الملاحدة: فلا شرعَ ولا نقلَ يحكمُهم، صُمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون، ولهذا أتَوا بالغرائبِ والعجائب، فخاضوا فيما لا تُعلمُ حقيقتُه إلا بالخبرِ الصادقِ وسوى ذلك ظنونٌ وهذيان، بل هي من وساوسِ الشيطان، ولو أنهم وقفوا عند ما يُتقنونَه من علومٍ وتركوا هذا المجالَ لأهل العلم بالشرعِ الحنيف - كما ترك أهلُ المهنِ الطبَّ لأهلِه فلم نسمعْ عن نجّارٍ يُجري عملياتٍ جراحيةٍ مثلا!- لكان أجدى لهم من هذا الخوضِ الباطل، ولكن كما قيل: مَن تكلم في غير فَنِّه أتى بالعجائب!

هذا ما تيسر ذكرُه على سبيل الاختصار والإيجاز، والله الموفق،

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

لماذا نقول أن الإنسان أتى إلى الأرض بمقدمة سماوية

بقلم د. elserdap

إن أيَّ عِلمٍ لا بد أن يستندَ إلى التعميم .. والقانونُ الفيزيائيُّ من منظورِ العلمِ ليس أكثرَ من نظريةٍ تعميميةٍ لأكثرَ من ظاهرةٍ طبيعيةٍ، وغايةُ العلومِ هي إيجادُ قانونٍ يجمع قوى الطبيعةِ جميعَها في معادلةٍ واحدةٍ، فعلومُ الطبيعةِ ينطبقُ عليها القانونُ ولا يختلُّ ولو للحظةٍ، ومجردُ اختلالِه يعني معجزةً، يعني تدخلاً في نظامٍ مؤسسي ..وجميعُ الكائناتِ على وجه الأرضِ تخضع لقوانينَ يمكن اختبارُها وإثباتُها فالحيوان يتحركُ بين مثيرٍ واستجابةٍ كفاءةٍ ومنفعةٍ بمنتهى البساطةِ والسطحيةِ والبعدِ الواحد .. لكن الإنسانَ ظاهرةٌ ضدَّ الطبيعةِ لا يمكن بأي حالٍ ردُّه إلى النظام الطبيعيِّ، فالحسُّ الجماليُّ والخُلُقيُّ والوعيُ والمقدرةُ على مراقبةِ الذاتِ ووخزُ الضميرِ الأخلاقيِّ والهدايةُ المفاجئةُ لأعتى الكافرينَ والمقدرةُ المطلقةُ على فعلِ الخيرِ والشرِّ بشكلٍ واعٍ وباختيارٍ حُرٍّ (**ونقولُ مقدرةً مطلقةً على فعل الخير والشر لأن الله خلق داخلَ كل منا عالَماً يسمى عالَمَ النيةِ، وداخلَ هذا العالَمِ يستطيعُ الإنسانُ القيامَ بأنبلِ التضحياتِ وأخسِّ البذاءاتِ، وهو عالَمٌ تتساوى فيه الاختياراتُ ولذا يقول نيتشه لا يوجدُ في جهنمَ ضحايا أبرياءُ فعالَمُ النيةِ عالَمٌ تستطيعُ فيه أن تكون أشرفَ الخلقِ أو أخسَّهم دون تغيرٍ يُذكرُ في عالَمِ الواقع، والأعمالُ بالنياتِ**) كلُّ هذه الأمورِ تؤكدُ أن الإنسانَ ليس ابناً للطبيعةِ وهو لا يتصرف كابنٍ للطبيعةِ فالإنسانُ غيرُ طبيعي ..الإنسانُ به قبسٌ إلهيٌّ أتى بِمُقدمةٍ سماوية .. وكما يقول الأستاذُ **علي عزت بيجوفيتش** رحمه الله :- ﴿ **ولو كان الإنسانُ حقاً ابناً للطبيعة كما يقولون فكيف بدأ بمعارضةِ الطبيعةِ التي نشأ منها** ﴾.

إنَّ أرقى أنواعِ الحيواناتِ تدور بين المثيرِ والإستجابةِ بينما الإنسانُ لا يجدُ لَذَّتَه إلا بالترفعِ عن الطبيعة التي نشأ منها.... فالزهدُ والتبتلُ والترفعُ والإيثارُ والشعورُ بالاغترابِ قِيمٌ غيرُ ماديةٍ ولكنها لصيقةٌ بالإنسانِ أينما حلَّ وارتحلَ، وكلُّ الفنونِ تحكي قصةً متصلةً لغربةِ الإنسانِ في الطبيعةِ، والإنسانُ أكثرُ من جميع ما تقوله عنه العلومُ مجتمعةً بل هو ربما ضدَّ العلوم.

في إحدى أفلام الجزيرةِ الوثائقيةِ تم استعراضُ مجموعةٍ من رسوم الكهوفِ نقشها الإنسانُ الأولُ في كلٍّ من فرنسا والمغربِ وأُستراليا وكانت المفاجأةُ لمتابعي الفيلمِ! فجميعُ الرسومِ تكادُ تتطابق .. قام يوربيدوس بتأليف المسرحيةِ الأخلاقيةِ (**نساءُ تروجان**) قبل الميلاد بقليلٍ وهذه المسرحيةُ أكملَها سارترُ بعدَ عشرينَ قرنًا ولا تشعرُ بأي فجوةٍ زمنيةٍ بين الكاتبين .. رأسُ المالِ الأخلاقيِّ الذي ورثه الإنسانُ الأولُ هو نفسُه رأسُ المالِ الأخلاقيِّ الذي يسعى إليه الآن سكانُ روما وكينيا والقاهرة.

لقد وُلدت الأخلاقُ مع المُحرماتِ ولا تزالُ كذلك إلى اليوم .. والأخلاقُ دائماً مبدأُ تقييدٍ أو تحريمٍ يناقضُ الغريزةَ الحيوانيةَ في طبيعةِ الإنسان .. فالإنسانُ في حدودِ الطبيعةِ وفي حدودِ قوانينِ المادةِ ليس إنساناً بل هو على أحسنِ الفروضِ حيوانٌ ذو عقل .. لكن الإنسانَ لا يتصرفُ كابنٍ للطبيعة ولكنه يتصرفُ كمغتربٍ عنها .. لا يشعرُ بقيمتِه وقيمةِ القبسِ الإلهيِّ بداخلِه إلا إذا ترفَّع عن الطبيعةِ التي نشأ منها .. وليس في أكثرِ الحيوانات رُقِياً شيءٌ من ذلك ..يقول الأستاذُ **علي عزت بيجوفيتش** رحمه الله :- ﴿ **ليس في عالمِ الحيوان شيءٌ ما يشبه ولو بشكلٍ بدائيٍّ الدينَ أو السحرَ أو المسرحَ الدراميِّ أو المحرماتِ أو الفنَّ أو المحظوراتِ التي كانت عند الإنسان الأول** ﴾ الحيوانُ عندما يذهبُ للصيد يسلكُ سلوكاً عقلانياً منطقياً يدورُ بين الكفاءةِ والمنفعة .. المثيرِ والاستجابةِ، لكن لا يذهبُ الإنسانُ للصيد إلا بعد أن يُخضِع نفسَه لطقوسٍ ومراسيمَ لا تمتُّ لعالمِ الطبيعةِ الماديِّ بِصِلة ... إن أصالةَ ظهورِ الإنسانِ تظلُّ دائماً بدون تفسيرٍ عقلانيٍّ فمن الواضحِ أن الإنسانَ لم يستجبْ للعالَمِ حولَه بالطريقة الداروينية.

يقول **نيتشه** في كتابه هكذا تكلم زرادشت :- ﴿ **اقهر الضعفاءَ اصعدْ فوق جثثِهم .. هكذا تكونُ ابنَ الطبيعة** ﴾ ويقول المفكرُ الإنجليزيُّ الشهيرُ **جون لوك** :- ﴿ **إذا كان كُلُّ أملِ الإنسان قاصراً على هذا العالمِ وإذا كنا نستمتعُ بالحياةِ هنا في هذه الدنيا فحسبْ فليس غريباً ولا مجافياً للمنطقِ أن نبحثَ عن السعادة ولو على حسابِ الآباءِ والأبناء** ﴾ .. فالإنسانُ من منظورٍ ماديٍّ أرضيٍّ هو كائنٌ عضويٌّ ذو ثلاثةِ أبعادٍ، حدودُ الطبيعةِ هي حدودُه يسري عليه ما يسري على الظواهر الطبيعية، فهو شيءٌ بين الأشياءِ يمكنُ دراستُه في إطار دوافعِه الاقتصادية، ومن ثَم يمكنُ رصدُه من خلال نماذجَ اقتصاديةٍ رياضيةٍ محضةٍ. يقول الدكتورُ **المسيري** رحمه الله في موسوعتِه ١-١١٧ :-

> ﴿ **بدون وجودِ إلهٍ تفقدُ كلُّ الكائناتِ حدودَها وحَيزَها، إذ تختفي المساحاتُ بينها ومن ثَم هويتُها وتَعيُّنُها وقيمتُها، وتذوبُ في القوة الواحدةِ التي تسري في الكون وتتخللُ ثناياه (القوةِ الدافعةِ للمادة، الكامنةِ فيها) وتعودُ الأشياءُ إلى حالةٍ سطحيةٍ ساذجةٍ (تشبهُ الفطيرةَ) تُسقطُ أيةَ ثنائيةٍ أو تعدديةٍ ولا تعرفُ تمييزاً بين ما هو أعلى وما هو أدنى وما هو هامشيٌّ وما هو مركزي، وما هو خيرٌ وما هو شر؛ نظامٌ دائريٌّ مُصمتٌ لا تتخلله ثغراتٌ أو مسافات، تشبه نهايتُه بدايتَه، وتشبهُ قمتُه قاعدتَه، وتشبهُ أسبابُه نتائجَه، وتشبه هوامشُه مركزَه، ومن ثم تنشأُ إشكالياتٌ في النظام المعرفيِّ والأخلاقي، إذ تفقدُ الأشياءُ حدودَها وهويتَها ويَصعُب التمييزُ بينهما، كما تَصعُب التفرقةُ بين**

الخير والشر، وتختفي الإرادةُ والمقدرةُ على التجاوزِ وتسودُ الواحديةُ والحتمية.

فالإلهُ هو الشرطُ الوحيدُ لحرية الاختيارِ وسموِّ الإنسانِ وقيمتِه وقيمةِ المطلقاتِ التي يحملُها.

فالإنسانُ يمثلُ ثغرةً في النظام الطبيعيِّ فهو ابنُ الطبيعةِ لكنه أتى بمقدمةٍ سماويةٍ لا يمكن إخضاعُه لقوانينِ الطبيعةِ وحتمياتِ ماركس التاريخيةِ أو حتمياتِ داروين العضويةِ أو حتمياتِ دوركايم الإجتماعية . هذا الاختلافُ بين الإنسانِ والطبيعةِ يُعبِّرُ عن نفسِه في الاختلافِ بين المؤشِّرِ في العلومِ الطبيعيةِ والمؤشِّرِ في العلوم الإنسانية.

"ما بعدَ الحداثة"."ما بعدَ الإلحاد". "ما بعدَ علمانيةِ المؤسسات".هذه العباراتُ المتكررةُ هي صرخةٌ مستمرةٌ وتأكيدٌ صريحٌ على فشلِ هذه المنظوماتِ فكلمةُ "ألْمَابعد" تؤكدُ أن النموذجَ السائدَ (الحداثة – الإلحاد) لم تَعُدْ له فعاليةٌ ولم يَعُدْ قادراً على تفسيرِ الواقعِ ولم يَعُدْ قادراً على فهم الإنسانِ وتلبيةِ حاجياتِه. يقول الدكتورُ **عبدُ الوهاب المسيري** رحمه الله في موسوعتِه ١-٨٥ :-

نظراً لِعجزِ المنظوماتِ القائمةِ نشأت منظوماتُ "ألْمَابعد" ونظراً لِعجزِ الإنسان الغربيِّ عن تسميتِه الظاهرةَ الجديدةَ فإنه يكتفي بالإشارةِ إليها من خلال كلمة "مابعد"

اغترابُ الإنسانِ في الأرض .. بحثُه عن الفردوس المفقودِ .. وخزُ الضميرِ الأخلاقي .. شعورُه بوجودِ مُطلقاتٍ في الحياة تجاوزُ الطبيعة .. رأسُ المالِ الأخلاقيِّ الرهيبِ الذي ورثه الإنسانُ الأولُ، هذه أسئلةٌ مجردةٌ عميقةٌ ولكن حياةَ الإنسانِ هي محاولةٌ للإجابة عنها. وحتى محاولةُ التهربِ منها ورفضِها يُشكِّل إجابة.

يعترف الملحدُ الشهيرُ **ريتشارد داوكنز** في لقاءٍ على أحدِ أفلام bbc الوثائقيةِ يقول :- **وأنا أيضاً أُعاني من الدُّاورِ الميتافيزيقيِّ والأسئلةِ المحيرةِ ولا يستطيعُ إنسانٌ يتأملُ في نفسِه وفي الزمانِ والحِقَبِ الجيولوجيةِ إلا واعتراهُ دُوارٌ ميتافيزيقيٌّ شديد** هذا الدوارُ يؤكدُ على عُمقِ المأساةِ، مأساةِ ذلك الإنسانِ الذي يبحثُ عن الفردوسِ المفقودِ وعن سبيلٍ للعودة إليه .. هذا الدوارُ الذي يؤكدُ أن للإنسانِ أصلاً آخرَ مستقرٌ في ذهنِه لكنه لا يذكرُ الآن شيئاً عنه وكلُّ حياةِ الإنسانِ هي محاولةٌ للعودةِ إلى ذلك الأصلِ أو الفردوسِ أو جنةِ الخلد ..!!

يقول **فرانسيس بيكون** أبو العلمِ الحديث :- **غايةُ كلِّ علومِ الحياةِ وتجاربِ الإنسانِ وغايةُ الوجودِ الإنسانيِّ كلِّه هي الإجابةُ عن الأسئلةِ الجوهريةِ في حياةِ الإنسان**، فالعلمُ ليس غايةً في حد ذاتِه وأعظمُ تجاربِ الإنسانِ لم

تُصمَّمْ إلا للإجابةِ عن الأسئلةِ الجوهريةِ في حياةِ الإنسانِ، فمفاعلُ سيرن العملاق في سويسرا وهو أعظمُ معملٍ في تاريخ الإنسانية .. أعظمُ جُهدٍ بشريٍّ في تاريخ العلم .. معملٌ يقوم على ٢٧ كيلومترًا بتكلفةِ مليارات الدولارات يعملُ فيه آلافُ العلماءِ فقط للإجابةِ عن الأسئلة الجوهريةِ في حياةِ الإنسانِ.

وإذا كانت حياةُ الإنسانِ حياةً حيوانيةً بسيطةً أُحاديةً خاليةً من الأسرار والرموزِ، وإذا لم تكن هناك حياةٌ أخرى وقيمةٌ أخرى، فكيف لهذه التساؤلاتِ الجوهريةِ أن تتسللَ إلى أذهانِنا، وكيف لها أن تجدَ طريقَها إلى تجاربِ العلماء..

فالبُعدُ الجُوانِيُّ في الظاهرةِ الإنسانيةِ يفوق في أهميتِه السلوكَ البَرانِيَّ الخاضعَ للرصد الماديِّ، يقولُ الدكتورُ **عبد الوهاب المسيري** رحمه الله في موسوعته ١-٦١ :-

الإنسانُ يمثلُ أكبرَ ثغرةٍ في النظام الطبيعيِّ؛ لا يقفُ في الكونِ كشيءٍ ضِمنَ الأشياءِ الأُخرى، ظاهرةً مِثلَ الظواهر، وإنما يقف شامخاً في مركز الكونِ تأتي عندَه القوانينُ الطبيعيةُ فتُعدِّلُ من مسارِها وتتغيرُ وتتحور، بل قد تتوقفُ أحياناً تماماً.

فهذا الكائنُ الذي يحوي داخلَه الأسرار، يستعصي على التفسيراتِ الطبيعيةِ ولا يمكنُ اختزالُه أو ردُّه إلى مبدإٍ واحدٍ، ولا يمكنُ التحكمُ فيه تحكماً كاملاً، إنه إنسانٌ يبحث عن المعنى ولا يستسلمُ للعبثِ أو العدميةِ أو الواحديةِ المادية، إنسانٌ حرٌّ قادرٌ على اتخاذ قراراتٍ أخلاقيةٍ وعلى تحمُّلِ المسئولية، ومن ثَم يشكِّلُ ثغرةً في النظامِ الطبيعيِّ وتحدياً للمنظوماتِ المعرفيةِ والأخلاقيةِ الواحديةِ المادية.

ولا يوجدْ شيءٌ في نهاية الأمرِ وفي التحليل الأخيرِ إلا وجهُ الله، ضمانًا لحريةِ الإنسانِ ووعيه بحريتِه.

يقول ابن القيم :

بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه لولا تعطيل كماله – أو بعضه – وظن السوء به : لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧] .

أي فما ظنكم به؛ أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء ؟ أظننتم: أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان ؟ أم ظننتم: أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده، حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك ؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم ؟ أم هو قاس . فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده ؟ أم ذليل . فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلّة، ويتعزز به من الذلة ؟ أم يحتاج إلى الولد ، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه ؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً .

والمقصود : أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه ، فلا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله . فمستقل ومستكثر .

مدارج السالكين شرح منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين: ٣/٣٤٧-٣٤٨

يقول ابن تيمية :

ولهذا كان هؤلاء المتفلسفة إنما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين، كالقرامطة والباطنية الذين ركّبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس وأظهروا الرفض، وكجهال المتصوفة وأهل الكلام .

وإنما يَنْفُقُون في دولة جاهلية بعيدة عن العلم والإيمان، إما كفارًا وإما منافقين، كما نَفَقَ منهم مَنْ نَفَقَ على المنافقين الملاحدة، ثم نَفَقَ على المشركين الترك . وكذلك إنما يَنْفُقُون دائما على أعداء الله ورسوله من الكفار والمنافقين .

الرد على المنطقيين : ٢٣٠-٢٣١

بقلم الأستاذ ياسر جبر
باحث له عدة كتب في مجال مقارنة الأديان والرد على النصرانية، من الأعضاء المؤسسين لمنتدى حراس العقيدة

منذ نشأةِ النصرانيةِ بوضعِها الحاليِّ مُقدَّسَةً لكتابٍ بين يدي النصارى قاموا بجمعِه من مصادرَ مختلفةٍ ونسبوا أصلَ الكتابةِ للوحي الإلهي، ومُؤمنةً بإلهٍ خالقٍ كاملٍ ولكنْ له شخصياتٌ تختلف عنه ولكنها ليست هو نفسُه، فيما يسمى بمعتقَدِ الثالوث.

استمرَّ إيمانُ النصارى معتمداً على إلغاءِ العقل وتغييبِه حتى بات المنطقُ العقليُّ معدوماً، وانتشرت مقولاتُ كبارِ رجالِ النصرانيةِ تحطُّ من العقل وتُبينُ أن الإيمانَ لا ارتباطَ بينه وبين العقل، ومنها ما قاله **أوغسطينيوس** قديسُ وفيلسوفُ النصارى:

﴿ أنا أُؤمن فربما أفهم ﴾

﴿ I believe in order that I may understand ﴾

وفي روايةٍ أُخرى شبَّه **أوغسطينيوس** محاولتَه لفهم الثالوثِ بمحاولة الطفلِ الصغيرِ لنقلِ ماءِ البحرِ داخلَ حفرةٍ صغيرةٍ على الشاطئ، فأشار باستحالةِ فهم ما يؤمن به، واستمر على حالِه حتى هلاكِه عام ٤٣٠ ميلادية.

ولم يكن ما قاله بعيداً عن مقولةِ سَلفِه **ترتيليان**، وهو من كبار آباءِ المسيحيةِ في القرن الثاني الميلادي الذي قال:

﴿ أنا أُؤمن لأنه غير معقول ﴾

﴿ I believe because it is absurd ﴾

والعجيبُ أنه لا تزالُ دائرةُ المعارفِ الكتابيةِ النصرانيةِ تكتبُ تحت تعريفِ الثالوث: إنَّ الثالوثَ الذي هو أصلُ العقيدةِ النصرانيةِ ليس له أيُّ برهانٍ عقلي، والأطرفُ أن الكتابَ المقدسَ عند النصارى لا يحتوي لفظَ الثالوثِ أو طبيعةَ الإلهِ كما يؤمنون بها من أقانيمَ أو تعددِ شخصيات. كلٌّ منهم إله، ولكنهم جميعاً إلهٌ واحد!!، فأصبح إيمانُهم بالله تعالى لا عقليًا ولا كتابيًا.

كان هذا حالُ النصارى بدءاً من القرن الثاني الميلادي، آباءٌ يضعون قوانينًا، ومجامعٌ تُوافق عليها، ومن له الغلبةُ والسيطرةُ يفرضُ قوانينَ مجامِعه، وآراءَ رجالِه، ويُلقي بكل مخالفٍ في نيران أي كتابٍ

يُحرَقُ لمخالفته المعتقَدَ الذي وافق عليه رجالُه الذين ارتضوا تغييبَ العقلِ وإلغاءَ النقلِ والاحتكامَ للأهواءِ وللاقتراعاتِ مع إعلانٍ بعدم الفهم!.

وكان مِن ضمنِ تدريباتِ إلغاءِ العقلِ ممارسةُ النصارى لطقسٍ يسمى التناول، أو سرُّ الإفخارستيا، وفي هذا الطقسِ يتلو الكاهنُ بعضَ الكلماتِ على رغيفٍ من الخبز تَم اختيارُه من بين عدة أرغفةٍ خُبزت خصيصاً لهذا الطقس, ويؤمن النصارى أنَّ المسيحَ الذي في اعتقادِهم أنه هو الله أو ابنُ الله أو أقنومٌ من ثلاثة أقانيمَ للإله، قد تجسد في رغيفِ الخبز، ويتمُّ تقطيعُ الخبزِ إلى قطعٍ صغيرةٍ ويُلقِمُ الكاهنُ طابورَ المصطفينَ قطعةً في فم كل منهم، ويعتقدُ كل نصرانيٍّ أنه أكل الربَّ كاملاً، مبرراً ذلك بأن الربَّ لا يتجزأُ إلى قِطَع، ويلوكُ النصارى الربَّ بين أسنانِهم، ويتمُّ طرحُه خلفاً باللسان إلى المعدةِ التي تصب عليه حمضاً لتهضمَه، وما يتبقى منه يتمُّ إلقاؤه إلى خلاءٍ أو مرحاض.

لاقت هذه العقيدةُ بعضَ الاعتراضات في القرون الوسطى ولكن كانت محاكمُ التفتيشِ والإعدامِ حرقاً هي الردَّ البسيطَ والجاهزَ على كل من يُصرِّحُ أو يتمُّ اتهامُه من أيٍّ من أقاربه أنه يشكُّ أنَّ الذي يتناولُه في القداس هو الربُّ نفسُه.

ونحن في القرن الواحدِ والعشرين لا تزالُ غالبيةُ الطوائفِ تمارسُ هذا الطقسَ عدا البروتستانت الذين يمارسونه كتذكارٍ وليس كإيمانٍ بأن الربَّ يتجسدُ في الرغيف ليأكلَه النصارى ويكونَ الربُّ فيهم.

إنَّ الثالوثَ الذي هو أصلُ العقيدةِ النصرانيةِ ليس له أيُّ برهانٍ عقلي أو دليلٍ كتابي.

وقد عاشت أوروبا والبلادُ النصرانيةُ في فقرٍ وجهلٍ تحت سيطرةِ الكنيسةِ وأفكارِها، حتى ظهرت الحركةُ المعارضةُ للكنيسة وسُلطتِها بقيادة مارتن لوثر مؤسسُ المذهبِ البروتستانتي في القرن السادس عشر، وكان من أهم أفكارِه، كسرُ احتكارِ الرهبان للكتاب المقدسِ عند النصارى وتركُ حريةِ قراءتِه وتفسيرِه للجميع، وقد رفض بدوره أجزاءً من الكتاب المقدس عند النصارى اعتبرها لا تليقُ بمستوى الوحي الإلهي، كانت ولا تزال الطوائفُ الأُخرى تعتبرها وحياً من الله تعالى!

وقد تزامن مع ظهورِ وانتشارِ البروتستانت، عملُ ترجماتٍ للكتاب المقدس عند النصارى، مثلِ ترجمةِ الملك جيمس ١٦١١ ميلادية، وصاحَبَ الترجمةَ انتشارُ طباعةِ الكتب ومنها الكتابُ المقدسُ عند النصارى.

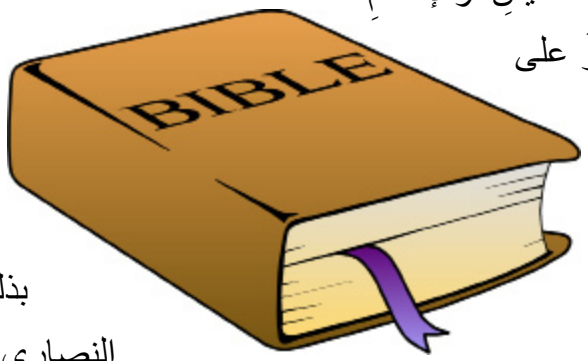

بذلك خرج الكتابُ المقدسُ عند النصارى من محبسِه إلى عامةِ الناسِ بعد أن كان حِكراً في لغتِه على بعض الرهبانِ، وفي حيازتِه على كبار الأثرياء.

خرج الكتابُ وأصبح متداوَلاً بين كل من يستطيعُ القراءةَ من أُدباءٍ وعلماءٍ مفكرين.

كان انتشارُ الكتابِ بين القراءِ صدمةً للقراءِ حولت كثيراً منهم إلى العلمانيةِ أو الإلحاد، وأبقت البعضَ منهم يؤمنون إيمانَ آبائِهم قانعينَ بالاستسلام ومُرددينَ شعاراتِ الإيمان بلا فهم، لاهثينَ وراءَ خرافةِ ظهورِ ضوءٍ فوق صليب، أو حُلمٍ بالرب أو بقديسٍ أو بأُمِّ الربِّ كما يعتقدون، أو مقتنعين بوَهمِ الصفاءِ النفسيِّ والمحبةِ التي لم نرها في التاريخ ولا في الواقعِ إلا في عظاتٍ ومجاملاتٍ رقيقة.

تحولَ كثيرٌ ممن قرأوا الكتابَ إلى الإلحادِ أو اللادينيةِ لأن عقولَهم لم تستوعبْ ما جاء فيه من أن الإلهَ خالقَ الكونِ بعظمتِه وكمالِه واتساعِه يتجسدُ في إنسانٍ وينزلُ ليلعبَ مباراةَ مصارعةٍ مع إنسانٍ عاجزٍ ضعيفٍ يؤرقُه صداعٌ أو إسهال، فيهزمُ الإنسانُ ربَّ العالمينِ وخالقَ الكونِ العظيم!! ويستمرُّ الإنسانُ المخلوقُ ممسكاً بالخالق ويقولُ له لن أتركَك حتى تباركَني، والإلهُ يقول له اترُكني فقد تأخر الوقت.

ولا يزال هذا إيمانُ النصارى، وبينما تستحي بعضُ الفرقِ وتقولُ أن الذي صارعه يعقوبُ هو ملاكٌ وليس الرب، تعترفُ الغالبيةُ بأن يعقوبَ كان فعلاً يصارع الرب، وهذا ما أكده **البابا شنودة** في كتابه **"سنواتٌ مع أسئلةِ الناس ـ أسئلةٌ لاهوتية ـ"** جزء أ: ص ٢٥.

وتبريرُ **البابا شنودة** منطقيٌّ فهو يقول: أكيد يعقوبُ كان يصارعُ الرب، لأنه قال له لن أتركَك حتى تمنحَني البركة (النبوة)، والملاكُ لا يملك أن يعطيَ النبوةَ لأحدٍ من البشر!

بذلك كلما اعتمد النصرانيُّ على كتابه في وضعِ ارتباطٍ بين الصورةِ العقليةِ عن الإله خالقِ الكونِ ومبدعِ الإنسانِ والحيوانِ والنباتِ بما يظهرُ مِن خلقِه من طلاقةِ القدرةِ والحكمة، وجد تعارضاً تاماً، فالإلهُ حسب الكتابِ الذي قدموه له أنه كلامُ الله: ينسى ويتصارعُ ويصفرُ للذبابِ الذي لا يسمع، ويقولُ أن الله خلق الأرضَ في اليوم الأول للخلق وجاء الليل،

بتعارض النصوص النصرانية مع العقل تجاه الخالق، فتحت النصرانية أبواباً واسعة للإلحاد والعلمانية والفلاسفة الماديين وأرباب الخرافات.

(تكوين ٣٢)

(٢٤): فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ. وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ.

(٢٥): وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ.

(٢٦): وَقَالَ:أَطْلِقْنِي لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ. فَقَالَ:لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي.

(٢٧): فَسَأَلَهُ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: يَعْقُوبُ.

(٢٨): فَقَالَ:لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدِرْتَ.

(٢٩): وَسَأَلَهُ يَعْقُوبُ: أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ. فَقَالَ: لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟ وَبَارَكَهُ هُنَاكَ.

(٣٠): فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ "فَنِيئِيلَ" قَائِلاً: لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ وَنُجِّيَتْ نَفْسِي.

ثم جاء النهار، وبعد تعاقبِ الليلِ والنهارِ أربعَ مراتٍ خلق اللهُ الشمسَ التي هي سببُ الليل والنهار!! ويقول الكتابُ في صفحاتٍ أُخرى أن الشيطان استولى على الربِّ وصعد به فوق جبلٍ عالٍ فأراه جميع ممالكِ الأرضِ كما لو كانت الأرضُ مسطحةً كملعبِ كرةٍ وكما لو كان الربُّ يحتاجُ الشيطانَ ليرفعَه ويريَه! والأدهى أن الشيطانَ قال للربِّ حسبَ روايةِ العهدِ الجديدِ المقدسِ عند النصارى، اسجدْ لي وأُعطيك هذه الممالك!! وإن سعى النصراني وراء المفسرين زادوا الطين بلةً وقالوا له لأن الرب كان مُتخفٍّ من الشيطان، فلم يقل له أنا الله حتى لا يُفسدَ خطته، وكان مُتخفٍّ من اليهود فلم يقل لهم أنا اللهُ حتى لا يقتلوه!

بذلك فتحت النصرانيةُ كغيرها من الاعتقادات الباطلة، أبواباً واسعةً للإلحاد وللعلمانيةِ وللفلاسفةِ الماديين ولأربابِ الخرافات، ومع استمرارِ حملاتِ التنصيرِ المكثفةِ على آسيا وإفريقيا تتنامى أعدادُ المغَيبين آكلي لحومِ الآلهةِ في الأماكن الأكثرِ فقراً وجهلاً، بينما تتزايدُ في العالم الأكثرِ وعياً بنسبة أكبرَ قليلاً أعدادُ المرتدين عن النصرانية الذين قارنوا بين العقل والنقل، فتصبحُ المحصلةُ كما تشيرُ مراكزُ إحصاءِ الاعتقاداتِ الدينيةِ تناقصٌ في النصرانيةِ المصدرِ الرئيسيِّ للدينيةِ واللاأدرية والإلحاد، الذي أحياناً يكون محطةً انتقاليةً قبل الانتقالِ إلى نورِ الإسلام.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

المراجع :

[١] كتاب: البيان الصحيح لدين المسيح، ياسر جبر.

[٢] الموسوعة البريطانية: الاعتقادات الدينية.
Encyclopedia Britannica Article - creed .

[٣] الكتاب المقدس عند النصارى.

[٤] دائرة المعارف الكتابية، دار الثقافة.

[٥] قصة الحضارة، وول ديورانت
www.civilizationstory.com/civilization/

[٦] الاعتقادات الدينية حول العالم:
www.adherents.com

[٧] د. ميخائيل، "٩٥ سؤال حول القداس"، مكتبة المحبة.

[٨] سنوات مع أسئلة الناس، أسئلة لاهوتية وعقائدية، جزء أ، شنودة.

[٩] هل نتناول خبزاً وخمراً أم لحماً ودماً، عبد المسيح بسيط، مكتبة المحبة.

قال مالك بن دينار:

لو كان لأحد أن يتمنى لتمنيت أن يكون لي في الآخرة خُصٌّ من قصب فأروى من الماء وأنجو من النار.

ويقول للمغيرة بن حبيب، وكان خَتَنُه:

يا مغيرة كل أخ وجليس وصاحب لا تستفيد منه في دينك خيراً فانبذ عنك صحبته.

صفة الصفوة: ص٦٥٨

عن الشافعي:

ضياعُ العالِمِ أنْ يكونَ بلا أخوان، وضياعُ الجاهِلِ، قلَّة عقلِهِ، وأضيعُ منهما مَنْ واخى مَن لا عقلَ له.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي / الجزء الثاني: ص٧٣٧

عن وهب بن منبه:

الحَمِقُ إذا تكلَّم فضحهُ حمقُه، وإذا سكت فضحَهُ عَيُّه، وإذا عَمِل أفسد، وإذا ترك أضاع، لا عِلمهُ يُعينُه، ولا عِلمُ غيره ينفعُه، تَوَدُّ أُمُّه أنَّها ثِكلَتهُ، وامرأته لو عَدِمتهُ، ويتمنَّى جارُه منه الوحدة، ويجد جليسه منه الوَحشة.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي / الجزء الأول: ص٤٤٣

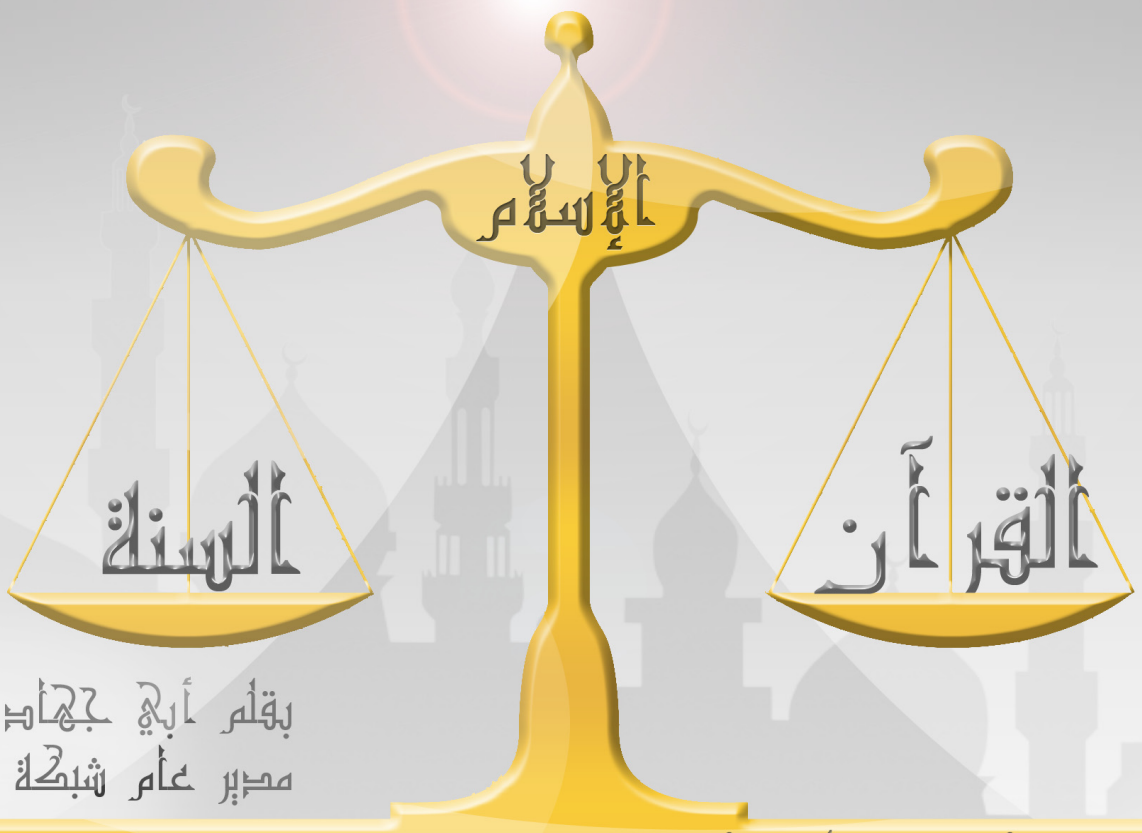

بقلم أبي جهاد الأنصاري
مدير عام شبكة أنصار السنة

الأدلةُ القرآنيةُ على حجيةِ السنةِ النبوية

الحلقة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

رَب يسرْ وأعِن.

نواصلُ عرضَ الأدلةِ القرآنية على حجيةِ السنةِ النبوية.

ثانياً

آياتٌ قرآنيةٌ لا يمكنُ إدراكُ مقصدِها إلا في إطارٍ من السنة النبوية

إن تشريعَ الإسلامِ تشريعٌ صالحٌ لكل زمانٍ ولكل مكانٍ ولكل الأشخاص، وتشريعٌ بهذه المواصفاتِ لا بدَّ أن يتسمَ بالكمال والشمول وأن يحتوي على قدرٍ وافرٍ من التفاصيل لأحكامِه، وعند الرجوعِ إلى القرآن الكريم نجدُ أنه قد جاء بالأحكام العامة دون الدخول في التفاصيل، وعندي أن إغفالَ القرآنِ الكريم لِذكر تلك التفاصيل وإحالتِها إلى السنة النبوية، دليلٌ على حجيتِها في التشريع الإسلامي، ذلك

أن القرآن قد أمرنا بالاجتماع وعدم الفرقة قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وعدمُ ذِكر تفاصيلِ الأحكام سيؤدي -لا محالة- إلى الحاجة إلى كثرة إعمالِ العقلِ والنظرِ والاعتمادِ على الرأي دون النص، الأمر الذي سيؤدي إلى وجود فجوةٍ كبيرةٍ بين الناظرين وبعضِهم البعض.

وأذكرُ في هذا المقامِ أنني سبق أن ناظرتُ منكراً للسنةِ في مسألة تفاصيلِ أحكام الصلاةِ فأنكر ما أجمع عليه أهل السنة منذ عهد النبي ﷺ إلى عهدنا هذا، وجاء بمواصفاتِ صلاةٍ من عنده، فزعم أن عدد الصلواتِ ثلاثةُ فروضٍ فأسقط الظهرَ والمغرب، وجاء بهيئةٍ غيرِ التي نعلم، ثم حاورتُ منكراً آخرَ بعده بفترة قصيرة، فاتفق مع الأول في التثليث واختلف معه في كل شيء، حيث أسقط العصرَ والمغربَ وجاء بهيئةٍ غيرَ التي نعلمُ وغيرَ التي ذكرها سلفُه، والمحصلةُ أنهما اتفقا على إنكارِ السنة ولم يتفقا على شيءٍ بعده.

والدرسُ المستفادُ من هذه الواقعةِ أن ترْكَ السنة -حتماً- سيؤدي إلى الاختلاف في الأحكام حداً نصلُ فيه إلى حد التنازعِ والتفرق، فهذان منكِران للسنة عندما تجنبا السنةَ وأعملا عقليْهما في القرآن بغير ضابطٍ ولا مرشدٍ أوقعهما في التعارضِ والاختلافِ فما بالنا لو زاد المنكرون عن هذين، ترى ماذا سيكون الحال؟!

وأبدأ -بحول الله وقوته- في استعراض بعضِ الآيات القرآنية التي لا نستطيعُ أن ندركَ مقصدَها إلا في إطارِ ضوابطَ من السنة النبوية. ولْنعلمْ أن هذا البابَ واسعٌ لا قيد له، وبحرٌ شاسعٌ لا ساحلَ له، ولكننا سننزعُ منه نَزعاً يسيراً لبيان المقصود، ولْتعلمْ أن ما فاتنا أكثرُ مما حصّلنا، ويكفينا أن نعرضَ المنهجَ ومن استطاع أن يكمل الطريق فقد عرف المنهج، واللهُ المستعانُ وهو من وراء القصد.

١

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠م] ، [النساء: ٧٧م]، [النور: ٥٦م] ، [يونس: ٣١] ، [المزمل: ٢٠ك].

الصلاةُ هى الركن العملي الأولُ في الإسلام، وقد ورد ذكرها والحث عليها في عشرات المواضعِ من القرآن الكريم ولم تنلْ عبادةٌ من الاهتمام في القرآن ما نالته الصلاة، ورغم هذا نجدُ أن القرآن لم يُشر من قريبٍ أو بعيدٍ إلى تفاصيل الصلاة، اللهم إلا أوضاعَ الصلاةِ الرئيسة: القيامَ والركوعَ والسجود، وكذا ثلاثةُ مواقيتَ في اليوم والليلة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]، هي أيضاً مواقيتٌ عامةٌ وغيرُ محددة، وعدا هذا لم يذكرْ القرآنُ مواضيع في غايةِ الأهمية بدونِها لا تصح الصلاةُ مثل: كيفيةِ بدءِ الصلاة، وكيفيةِ خَتمِها، بحيث تتميزُ عما عداها من الأقوال والأفعال، وأحكامِ الإمامةِ والجماعةِ وأركانِها وشروطِ صحتِها ومبطلاتِها.

٢

ولْننظرْ إلى معضلةٍ أخرى عندما نقرأُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]

المقصودُ بالنداء هنا: الأذان، وقد اكتفى القرآنُ -كعادته- بذِكر أن هناك ثمة نداءٍ إلى الصلاةِ ولم يذكرْ هيئةَ هذا النداءِ وماهيةَ ألفاظِه. ولكنَّ السنةَ هي التي تقوم بهذا الدور الفريدِ فعن عبدِ الله بنِ زيدِ بنِ عبدِ ربه: ﴿ لما أجمع رسولُ اللّه ﷺ أن يضربَ بالناقوس وهو له كارهٌ لموافقته النصارى طاف بي من الليل طائفٌ وأنا نائمٌ رجلٌ عليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوسٌ يحملُه قال فقلت: يا عبدَ اللّه أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنعُ به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلُّك على خيرٍ من ذلك فقلت: بلى. قال تقول: اللّه أكبر.... (إلى نهاية الأذان)... قال: فلما أصبحت أتيت رسولَ اللّه ﷺ فأخبرتُه بما رأيت فقال: إنها لرؤيا حقٌّ إن شاء اللّه فقُم معَ بلالٍ فألْقِ عليه ما رأيت فإنه أندى صوتاً منك قال فقمت معَ بلالٍ فجعلتُ ألقيه عليه ويؤذنُ به قال: فسمع ذلك عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته فخرج يجرُّ رداءَه يقول: والذي بعثك بالحق لقد رأيتُ مثل الذي أُرِي. فقال رسولُ اللّه ﷺ فلله الحمد﴾. رواه أحمد (١٥٨٨١) والترمذي (١٧٤) وأبو داود (٤٢١) و (٤٣٠) وابن ماجه (٦٩٨).

٣

ثم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

نجدُ أن القرآنَ قد أحال على السنة كيفيةَ خَتمِ الصلاة، ثم ها هو يأمرُنا بذِكر الله بعد الانتهاء منها ولم يوضحْ كيف نذكرُه، بينما جاءت السنةُ ببيان هذا الذكر تفصيلياً فيما يُعرف بأذكار ما بعد الصلاة من استغفارٍ وتسبيحٍ وتحميدٍ وتكبيرٍ وتهليلٍ وبينت عددَ كلٍّ منها: فالاستغفارُ يكون ثلاثاً والتسبيحُ والتحميدُ والتكبيرُ يكون كلٌّ ثلاثاً وثلاثين، والتهليلُ: (لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير) مرةً واحدةً. كما تذكر الآيةُ الكريمةُ أن الصلاة ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ والشيءُ الموقوتُ يكون له ابتداءٌ وانتهاء، فأين نجدُ ذلك في كتاب الله؟ بينما لم يصلْنا إلا من خلال ما ورد في السنة النبوية، فقد أخرج الإمامُ مسلمٌ في صحيحه (ح ٦١٠) عن أبي مسعودٍ الأنصاري قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: ﴿نزل جبريل فأمّني. فصليتُ معه. ثم صليتُ معه. ثم صليتُ معه. ثم صليتُ معه﴾. يحسبُ بأصابعِه خمسَ صلوات.

وفيه أيضاً (ح٦١١) عن عبد الله بنِ عمرو ؛ أن نبيَّ الله ﷺ قال: ﴿إذا صليتم الفجرَ فإنه وُقتَ إلى أن يطلعَ قرنُ الشمسِ الأول. ثم إذا صليتم الظهرَ فإنه وُقتَ إلى أن يحضرَ العصر. فإذا صليتم العصرَ فإنه وُقتَ إلى أن تصفرَّ الشمس. فإذا صليتم المغربَ فإنه وُقتَ إلى أن يسقطَ الشفق. فإذا

صليتم العشاءَ فإنه وُقتَ إلى نصفِ الليل﴾.

وفيه كذلك (ح ٦١٢) عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ ؛ قال: ﴿وُقتُ الظهرُ ما لم يحضرِ العصر. ووُقتُ العصرُ ما لم تصفرَّ الشمس. ووُقتُ المغربُ ما لم يسقطْ ثورُ الشفق. ووُقتُ العشاءُ إلى نصف الليل. ووُقتُ الفجرُ ما لم تطلعِ الشمس﴾.

وفي روايةٍ أن رسولَ الله ﷺ قال: ﴿وَقتُ الظهرِ إذا زالت الشمس. وكان ظلُّ الرجلِ كطوله. ما لم يحضرْ العصر. ووقتُ العصرِ ما لم تصفرَّ الشمس. ووقتُ صلاةِ المغربِ ما لم يَغبِ الشفق. ووقتُ صلاةِ العشاءِ إلى نصف الليلِ الأوسط. ووقتُ صلاةِ الصبحِ من طلوعِ الفجر. ما لم تطلعِ الشمس. فإذا طلعت الشمسُ فأمسِك عن الصلاة. فإنها تطلعُ بين قرنَي شيطان﴾.

وفيه (ح ٦١٣) عن بريدةَ، عن أبيه، عن النبي ﷺ ؛ ﴿أن رجلاً سأله عن وقت الصلاة؟ فقال له: "صلِّ معنا هذينْ (يعني اليومين) فلما زالت الشمسُ أمرَ بلالاً فأذَّن. ثم أمَره فأقام الظهر. ثم أمَره فأقام العصر. والشمسُ مرتفعةٌ بيضاءَ نقية. ثم أمَره فأقام المغربَ حين غابت الشمس. ثم أمَره فأقام العشاءَ حين غاب الشفق. ثم أمَره فأقام الفجرَ حين طلع الفجر. فلما أن كان اليومُ الثاني أمَره فأبردَ بالظهر. فأبردَ بها. فأنعم أن يُبرد بها. وصلى العصرَ والشمسُ مرتفعة. أخَّرها فوق الذي كان. وصلى المغربَ قبل أن يغيبَ الشفق. وصلى العشاءَ بعد ما ذهب ثلثُ الليل. وصلى الفجرَ فأسفر بها. ثم قال: "أين السائلُ عن وقتِ الصلاة؟" فقال الرجلُ: أنا يا رسولَ اللّه! قال: "وقت صلاتِكم بين ما رأيتم"﴾.

إلى غيرِ ذلك من الأحاديثِ التي أفاضت في شرحِ مواقيتِ الصلاة والمنتشرةُ في دواوين السنة، والتي أجملَها النبي ﷺ عندما قال: ﴿وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي﴾ [أخرجه ابنُ حبان في صحيحه عن مالك بن الحويرث].

ثم تأملْ قول النبي ﷺ في الحديث الأول: ﴿نزل جبريلُ فأمّني﴾ أليس هذا هو عينُ ما قاله القرآنُ الكريم: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾؟! [النجم : ٥].

٤

وتستمرُّ المسيرةُ مع الصلاةِ حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦]

فما الفرق بين الصلاةِ لله والصلاةِ على النبي ﷺ!؟ القرآن لا يجيبُ على هذا التساؤلِ ، ولكنه يحيلُ الإجابةَ على السنة. وسيعجزُ جهابذةُ منكري السنةِ أن يجيبوا هذا التساؤلَ إذا ما أعرضوا عن السنة، وستقعُ بينهم الاختلافاتُ سحيقةَ الأعماقِ في هذا الصدد!

٥

ولا تزال الصلاةُ تنافحُ عن حجية السنة، فيقول ربنا سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]

لم يذكر القرآنُ كيف يكونُ القصر؟ هل بالتقليل من عدد الفرائض؟ أم بتقليلِ عددِ الركعات؟ أم بتخفيضِ زمنِ أدائِها؟ أم القصرِ من حركاتِ القيامِ والركوعِ والسجود؟

ما هو معيارُ القصرِ وما هي كيفيتُه؟ لن يجيبَ القرآنُ وسيحيلُ على السنة، ترسيخاً لحجيتها.

٦

وقبل أن نغادرَ أحكامَ الصلاةِ في القرآن الكريم نأتي بقاصمةِ الظهرِ لمنكري السنةِ في شأنِ الصلاة، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣م]

فما هي القبلةُ التي كان عليها؟ وأين الأمرُ القرآني بتلك القبلةِ الأولى؟ إن كان ذلك أمراً قرآنياً فأين هو؟ وإذا جاز أن يأتي أمرٌ آخرُ من خارجِ القرآنِ فهل هناك أولى من السنة بهذا؟!

٧

وفي شأن الزكاةِ يقول ربنا جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]

فكم يبلغُ مقدارُ هذا الحقِّ المعلوم؟ وكيف يوصفُ بأنه معلومٌ ولم يُذكرْ مقدارُه أصلاً؟! وتأملْ قولَه تعالى: ﴿أموالهم﴾ حيث جاء بها على سبيل الجمع، فهو إذن يتحدثُ عن أجناسٍ شتى ومختلفةٍ من المال، فالذهبُ مالٌ، والفضةُ مالٌ، والماشيةُ، والإبلُ، والأغنامُ، والماعزُ، كلُّها من صنوفِ المال، فهل يستوي ذلك الحقُّ المعلومُ من الذهب مع مثيلِه من الفضة، وهل يستوي هذان مع الآخرِ الخاصِّ بالماشيةِ والإبلِ والأغنام والماعز؟

وماذا عن الأرض والزرع؟ أليست هي الأخرى مِن جنسِ المال، ومِن ضِمنِ الثروات؟ فما مقدارُ الحقِّ المعلومِ منها؟ ولماذا لم يُفصلْه القرآنُ الكريم؟ وهل يستطيع أيُّ إنسانٍ مهما أوتيَ من البلاغةِ أو الفصاحةِ أو البيان أن يُدرك هذا الحقَّ المعلومَ من هذه الأموالِ من كتاب الله دون الرجوعِ إلى السنة ؟!

٨

ولعل مناسكَ الحج وشعائرَه الكثيرةَ والمتنوعة، والتي جاءت مجملةً في القرآنِ الكريم ومفصلةً في السنة، قد رفعتْ حجيةَ السنةِ إلى مكانةٍ عاليةٍ متمايزةٍ حيث قال النبي ﷺ: ﴿خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا﴾ [السنن الكبرى للبيهقي]. فعندما يقولُ ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ويقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]

فمن ذا الذي يخبرُنا بالفرقِ بين الحجِّ والعمرةِ من القرآن الكريم ؟! ثم إن الله أمرنا بإتمام الحج والعمرةِ ولم يخبرْنا سبحانه -في القرآن الكريم- بمعيارِ هذا الإتمام.

٩

وعندما يقول تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١٨٩]

فما الحكمةُ من الربط بين الحج وإتيانِ البيوتِ من ظهورها؟! وما حكمةُ تحريم إتيانِ البيوت من ظهورِها في هذا الموضع بالذات؟! هذا يسمى في علومِ القرآنِ بعلمِ المناسبة، أي مناسبةُ الآياتِ مع بعضِها ومناسبةُ الفقراتِ المختلفةِ ظاهرياً مع بعضِها البعض، وهذا العلمُ لا يُدركُ إلا بالسنة.

فهذه الأسئلةُ وغيرُها لا يمكنُ الإجابةُ عنها بالنظر إلى القرآن وحدَه مستقلاً عن السنة، ولكن يسهلُ علينا فهمُها إذا طالعْنا الحديثَ الذي رواه البخاري (ح ٤٥١٢) عن البراءِ قال: ﴿ كانوا إذا أحرموا في الجاهليةِ أتَوْا البيتَ من ظهرِه، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ﴾. وكذا رواه أبو داودَ الطيالسي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: ﴿ كانت الأنصارُ إذا قدموا من سَفَرٍ لم يدخلِ الرجلُ من قِبَلِ بابِه، فنزلت هذه الآية ﴾ . وقال الحسن البصري: ﴿ كان أقوامٌ من أهلِ الجاهليّة إذا أراد أحدُهم سَفرًا وخرج من بيته يُريدُ سفره الذي خرج له ، ثم بدا له بَعْد خُروجِه أن يُقيم ويدعَ سفرَه، لم يدخل البيتَ من بابه، ولكن يتسوّرُه من قِبَلِ ظهرِه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ الآية ﴾.

وقال محمدُ بنُ كعب: ﴿ كان الرجلُ إذا اعتكف لم يدخلْ منزلَه من بابِ البيت، فأنزل الله هذه الآية ﴾.

وقال عطاءُ بنُ أبي رباح: ﴿ كان أهلُ يثربَ إذا رجعوا من عيدِهم دخلوا منازلَهم من ظهورِها ويَرَوْنَ أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ قاله ابن كثير ﴾.

١٠

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ١٣٦]

ولم يسم لنا هذه الأربعة الحرم، ألم يقل ربنا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾ [الإسراء: ١٢] فأين تفصيلُ ذلك في كتاب الله؟! فهل يُكذّبُ هؤلاء اللاقرآنيين ربَّنا؟! -تعالى الله علواً كبيرا- ولكن الإجابةَ هنا في السنةِ النبوية، فيما أخرجه الإمامُ البخاريُّ في صحيحِه عن أبي بكرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ﴿إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض، السنة اثنا عشرَ شهرا، منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثٌ متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجبُ مضرٍ الذي بين جمادى وشعبان﴾ [البخاري ح (٣١٩٧ ، ٤٦٦٢ ، ٤٤٠٦ ، ٥٥٥٠ ، ٧٤٤٧) ، مسلم ح (١٦٧٩)].

١١

وفي الحج أيضاً يقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]

رغم أن القرآن، يصفُ توقيتَ الحجِّ بأنه أشهرٌ معلومات إلا أنه لم يذكرْ ما هي تلك الأشهرِ المعلومات، ولم يسمِّها لنا بل تركها للسُّنة لتخبرَنا بها. قال ابن عمر: ﴿هي شوال، وذو القَعْدة، وعشرٌ من ذي الحجة﴾ وقد علَّقه البخاريُّ بصيغة الجزم وقد رُوي موصولاً عند ابنِ جريرٍ الطبري في تفسيرِه والحاكم في مستدركِه بإسنادٍ صحيح. وعلى هذا أجمعَ جمهورُ العلماءِ وكافةُ أهلِ الإسلامِ اتباعاً لسنة النبي ﷺ.

١٢

ويقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ١٩٨] كسابقتِها، حيث يذكرُ القرآنُ أن هناك أيامًا معدوداتٍ ثم يُعرضُ عن تحديدِهن، فتأتي السنةُ لتخبرَ أن هذه الأيامَ المعدوداتِ عدتُها ثلاثةُ أيام، وهي أيامُ التشريق: الحادي عشرَ والثاني عشرَ والثالثَ عشر من شهرِ شوال، ولا سبيلَ إلى معرفة ذلك إلا بالسنة المحمدية.

١٣

ثم يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]

ونحن نسأل: مِن أين يفيضُ الناس؟ ألا يُعدُّ هذا إحالةً من القرآن إلى ما تعارفَ عليه الناسُ من أمر دينِهم وما تلقوه من نبيهم ﷺ ؟!

١٤

ويقول تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]

وهنا نقعُ في إشكالياتٍ كثيرةٍ لا يمكن أن نحيطَ بها إلا من خلال السنة. من ذلك: ما هو القدرُ الذي يتمُّ فيه القطع؟ ومن أين تُقطعُ اليد: مِن الرسغ؟ أم من المرفق؟ أم من الكتف؟ فاليدُ تُطلق على كل ذلك. وأيُّ يدٍ تُقطع، اليمنى أم اليسرى؟ وماذا نفعلُ عند تعددِ السرقات؟

إذا أراد المنكرُ للسنة أن يجيبَ عن السؤالِ الأول: ما هو القدرُ الذي يتمُّ فيه القطع؟ فسيضطرُّ أن يقولَ بالقطع ولو في عقالِ غنم، ولا شك أنه بهذا سيخالفُ قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ولكنَّ سنةَ النبي ﷺ جاءتنا بالنور والهدى والسراج المنيرِ فقال ﷺ: ﴿تُقطعُ يدُ السارقِ في رُبعِ دينارٍ فصاعدا﴾ [أخرجه صحيح البخاري برقم (٦٧٨٩) ومسلم (١٦٨٤)] كما بينت أحاديثُ أخرى أن القطعَ يكونُ من الرسغِ ويبدأ في الأولى باليدِ اليمنى ثم في الثانيةِ من الرجل اليسرى.

وبعدُ، فهذا غيضٌ من فيض، وقليلٌ من كثير، وهو جهدُ المُقلِّ، ولعل المنهجَ الذي نريدُ أن نقدمَه من خلال هذه الحلقةِ من سلسلةِ الأدلةِ القرآنيةِ على حجيةِ السنة النبوية يصلحُ لأنْ نُعممَه على مئاتٍ -إن لم يكن آلافِ- الآياتِ القرآنيةِ والتي من خلالِها يتضحُ لنا أن هناك جملةً كبيرة من آيات القرآنِ الكريمِ لن نتمكنَ من فهمِها وإدراكِ معانيها إلا في إطارِ بيانٍ وتوضيحٍ وتفسيرٍ من السنة النبوية.

وكل ما ذكرتُ هنا هو مجردُ أمثلةٍ لمنهجٍ متكاملٍ يستحقُّ أن نؤَصلَه لنستخرجَ جيشاً وحشداً من الأدلةِ التي ندمغُ بها رؤوسَ من ينكرون سنةَ النبي محمدٍ بنِ عبدِ الله صلوات ربي وسلامه عليه.

قالتها أُمُّ إسماعيلَ لخليلِ الرحمنِ إبراهيمَ عليه السلام في جبال مكة: آللهُ أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: إذن لا يُضيعُنا الله.

وقال جبريلُ الأمينُ لأم إسماعيل:

﴿ لا تخشَي الضيعة، إن الله لا يُضيعُ أهلَه ﴾

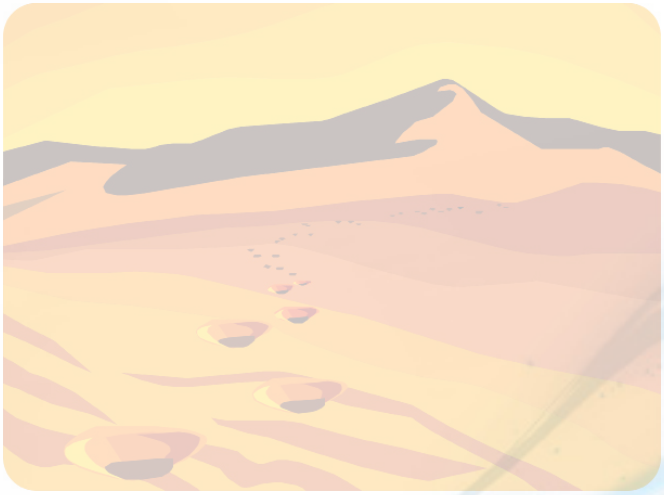

ما ضيعَ اللهُ أحداً من خلْقِه ولا رُسُلِه: ما ضيعَ نوحاً وهو على ظهر سفينتِه في موجٍ كالجبال، ولا ضيعَ إبراهيمَ وهو في النار، ولا يوسفَ في قاع البئر، ولا يونسَ في بطنِ الحوت.

كان اللهُ لهم في كَربِهم وشدتِهم، استغاثوا به، ودعَوه دعاءَ المضطر، تيقنوا أن النصرَ من عندِه وحدَه، وعرفوا أن اللهَ ينصرُ من ينصرُه، عرفوا بقلوبِهم أن النصرَ آتٍ وأنه مِن ظلمةِ الليل ينبثقُ نورُ الفجر، وجاء نصرُ الله مؤيِّداً مسدِّداً لهم وكان لهم العزُّ والفخر.

ما ظنك باثنين اللّهُ ثالثُهما!

ويشتدُّ الكربُ ويبلغُ مَداهُ برسولِ الله ﷺ ،
فيخرجُ معَ صاحبِه ومَن صدَّقه أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه ، يتخفيان
من القوم، يطويهُما الظلام، ويتبعُهما الكتمان!

وتبدأُ مطاردةُ الأعداء، يختبئان في الغار ويَحبسُ أبو بكرٍ أنفاسَه خوفاً على رسول الله ويقول: ﴿ يا رسولَ اللهِ لو نظر أحدُهم تحت قدميه لأبصرَنا ﴾ ، فيقولُ النبيُّ ﷺ : ﴿ يا أبا بكرٍ ما ظنُّك باثنين اللّهُ ثالثُهما؟ ﴾[١] .

يصلُ المشركون إلى بابِ الغار، يرتبطُ قلبُ رسولِنا ﷺ بالله وحدَه، يرجو النصرَ منه، يتوكلُ عليه ويُفوضُ أمرَه إليه، يعلمُ علمَ اليقينِ أن الله يكفيه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[٢]، فتهدأُ نفسُه وتغمرُ السكينةُ قلبَه، ويأتي النصرُ المؤزَّرُ من عند الله بجنودٍ لم يرَوها، ويجعلُ كلمةَ الله هي العليا وكلمةَ الذين كفروا هي السفلى، هي معيةُ الرحمنِ ومن يكنِ اللهُ معه لا يحزنْ ولا يلتفتْ لقوةٍ أو عددٍ فمِن عندِ اللهِ النصرُ والمدد، قال تعالى:

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣]

وما النصرُ إلا مِن عندِ اللّه!

يخرجُ المسلمون في يوم بدرٍ لملاقاةِ الفئةِ التي تحرسُ القافلة، فيرَون قريشاً قد نَفرتْ بخيلِها ورَجلِها، وشجعانِها وفرسانِها، ويقول بعضُ الصحابة: ﴿ ما لنا طاقةٌ بقتالِ العدو ﴾ ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[٤] ، ينظرُ النبيُّ عليه الصلاة والسلامُ لضعفِ المسلمين وقلةِ عددِهم وخوفِهم وفزعِهم، ويرى حالَ أهلِ الكفرِ وتَجبُّرِهم وكِبرِهم.

عن عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ قال: ﴿ لما كان يومُ بدرٍ نظر النبيُّ ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثُ مئةٍ ونيِّف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألفٌ وزيادة، فاستقبل النبيُّ ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزارُه، ثم قال: ﴿ اللهم أنجزلي ما وعدتني، اللهم إن تَهلكْ هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ فلا تُعبدْ في الأرض أبداً ﴾ قال: فما زال يستغيثُ ربَّه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءَه فردّاه، ثم التزمَه من ورائِه، ثم قال: يا نبيَّ الله، كفاك مناشدتَك ربَّك، فإنه سينجزُ لك ما وعدك ﴾[٥] ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٦]

ويبدأُ شياطينُ الإنسِ من المنافقينَ بالتثبيطِ والوسوسةِ للمسلمينَ بالخنوعِ والتراجعِ وبثِّ اليأسِ والعجزِ في قلوبِ الذين آمنوا. قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٧]

فزِعَ المسلمون في غزوة بدر، فالعدوُّ يتربصُ بهم، وهم قلةٌ بلا عددٍ ولا مددٍ ولا ماء، وفي هذه اللحظاتِ الصعبةِ يتبينُ الإيمانُ الراسخُ والثباتُ على الحق، وصِدقُ التوكلِ على الله واللجوءِ إليه، يتضرعون إلى الله، ويستغيثون به، ويُفوضون أمرَهم إليه سبحانه ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٨]

ويأتي المددُ والنصرُ والتمكينُ تباعاً يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾[٩] يغشاهم النعاسُ أَمَنةً من اللهِ فيستيقظونَ والسكينةُ تغمرُ نفوسَهم، والطمأنينةُ تفيضُ على قلوبِهم، ويأتي الماءُ مَدداً آخرَ من أمدادِ الله لعبادِه المؤمنين، فيشربون ويتطهرون ويُذهبُ اللهُ عنهم رجسَ الشيطان.

يقولُ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿فأمطرَ اللهُ عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهبَ اللهُ عنهم رجزَ الشيطان، وثبَّتَ الرملَ حين أصابه المطر، ومشى الناسُ عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمدَّ اللهُ نبيَّه ﷺ بألفٍ من الملائكة، فكان جبريلُ في خمسمائةِ مَجنبة، وميكائيلُ في خمسمائةِ مَجنبة﴾

تدبيرٌ فوق تدبيرِ البشر، وقوةٌ فوق قوةِ البشر، ومعيةُ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٠]

نصرَ اللهُ عبادَه المؤمنين ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ ولأن الانتصارَ للدينِ والعقيدةِ يَهزمُ أعداءَه المدججينَ بالسلاح والمزودينَ بالعُدة والعَتاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١١]

لقد قالها المشركون لحليفِهم: ﴿فلَعمري لئن كنا إنما نقاتلُ الناسَ فما بنا من ضعفٍ عنهم، ولئن كنا إنما نقاتلُ اللهَ - كما يزعمُ محمد - فما لأحدٍ بالله من طاقة﴾.

كانت غزوةُ بدرٍ آيةً من آياتِ اللهِ الدالةِ على وجودِه سبحانه، وأنه الملكُ العزيزُ ذو القوةِ المتين، وسُنةً من سُننِه الجاريةِ في خلقِه ما دامت السماواتُ والأرض.

وصدق اللّه ورسولُه!

والمؤمنُ الحقُّ إيمانُه راسخٌ كالجبالِ الراسياتِ لكنْ عندما تشتدُّ المحنُ ويتكالبُ الأعداءُ ويشتدُّ الكرب، فقد يضعفُ الإنسانُ وتضعفُ عزيمتُه، وهذا ضعفُ البشر، وقد كان أكثرُ دعائِه رسولُ الله ﷺ : ﴿ يا مُقلبَ القلوبِ ثبتْ قلبي على دينك ﴾[١٢] فالدعاءُ بالتثبيت أمرٌ لازمٌ مع الصبر قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[١٣] وقال عزّ من قائل: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[١٤]

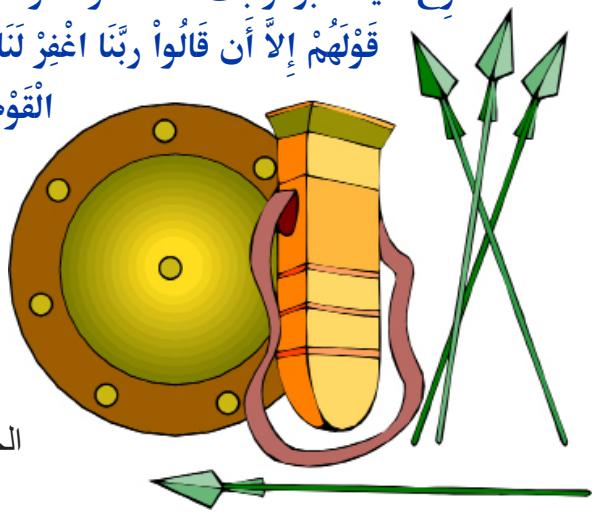

ففي غزوةِ الأحزابِ خرجت قريشٌ في عشرةِ آلافٍ من أحابيشِهم، ومن تبِعهم من كنانة، وأهلِ تهامة، وأقبلت غطفان، ومن تبِعهم من أهلِ نجد، وقد حالَ الخندقُ بينهم وبين المدينة، وأمرَ النبيُّ بالذراري والنساءِ فجُعلوا في الحصون، ونقضتْ بنو قريظةَ عهدَها معَ رسولِ الله ﷺ،

وعَظُم البلاءُ واشتدَّ الخوف، وأتاهم عدوُّهم من فوقِهم ومن أسفلَ منهم، وكان المشركون يتناوبون على المسلمينَ فيغدو كلُّ واحدٍ منهم يوماً، حتى عظُم البلاءُ وخاف الناسُ خوفاً شديداً.

يصف اللهُ تعالى حالَ المؤمنين فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ۞ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾[١٥]

ويُصورُ لنا الصحابيُّ الجليلُ حذيفةُ بنُ اليمانِ كَرْبَ الموقفِ فيقول: ﴿ واللهِ، لقد رأيتُنا معَ رسولِ الله ﷺ هَويًا من الليل، ثم التفتَ إلينا فقال: ﴿ مَنْ رجلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعل القوم، ثم يرجع ﴾، يشرِطُ له رسولُ الله الرجوع، ﴿ أسألُ اللّهَ تعالى أن يكونَ رفيقي في الجنة؟ ﴾ فما قام منا رجلٌ من شدةِ الخوف، وشدةِ الجزع، وشدةِ البرد ﴾.

وفي رواية: ﴿فقال النبي ﷺ : ﴿مَن رجلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعل القومُ أضمنْ له رجوعَه سالِمًا؟ ﴾، قال: فواللهِ ما قام من أحدٍ ورسولُ اللهِ أحبُّ إليهم من أعينِهم. فقال رسول الله ﷺ : ﴿ مَنْ رجلٌ ينظرُ ما فعل القومُ ثم يرجعُ ويضمنُ له الرجعة؟ ﴾ فقال: ﴿ أسألُ اللّه أن يكون رفيقي في الجنة ﴾، فما قام رجلٌ من القوم من شدةِ الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد﴾[١٦]

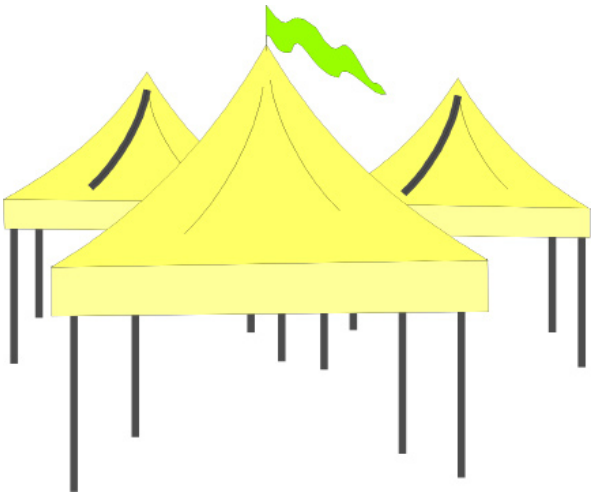

أيُّ كربٍ شديدٍ يمنعُ الصحابةَ ورسولُ الله ﷺ أحبُّ إليهم من الدنيا وما فيها وأحبُّ إليهم من أنفسِهم فلا يقومونَ بتنفيذ أمرِه لأولِ وهلة! وهو يضمنُ لهم الرجوعَ والرفقةَ له ﷺ في الجنة.

وأيُّ كربٍ مزلزلٍ يجعلُ الرسولَ والصحابةَ لا يُصلون العصرَ حتى يقولَ الرسول: ﴿ شَغلنا المشركونَ عن صلاة العصر، ملأ اللّهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا ﴾.

حفرَ المسلمونَ الخندقَ حولَ المدينة، فظهرتْ صخرةٌ عجزَ عن كسرِها الأصحاب، فشمَّر لها رسولُ الله ﷺ عن ساعدِه المبارك، فقال لأصحابه: ﴿ دَعُوني فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهَا ﴾، فَقَالَ: ﴿ بِسْمِ اللَّه ﴾ ، فَضَرَبَهَا فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ ثُلُثُهَا، فَقَالَ: ﴿ اللَّهُ أَكْبَرُ قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ﴾ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِأُخْرَى فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ﴾[١٧] نعم! اللهُ أكبرُ في هذا الموقفِ العظيم، الكفارُ مجتمعونَ حول المدينةِ بعُدتِهم وعتادِهم، والموقفُ صعبٌ وشديدٌ كما وصفه اللهُ في كتابه: ﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾[١٨] رغم عِظمِ الخَطبِ واشتدادِ الأمرِ وضِيقِ الحال، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ

الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[١٩] ينادي النبيُّ ﷺ مُبشراً بفتحِ فارسَ والرومَ وسلْبِ كنوزِهما، هذا كلامٌ لا يصدرُ إلا عن ثقةٍ تامةٍ بنصرِ الله لأوليائه، وتعلُّقٌ كبيرٌ بالله خالقِ الأسباب، وهازمِ الأحزاب، وأن النصرَ بيدِ اللهِ وحدَه،وإن كانوا في مثلِ هذا الموقفِ العصيب، كان كلامُه ﷺ تبشيرًا منه لأصحابِه في هذا الموقف،ليرفعَ معنوياتِهم، ويجددَ أُمنياتِهم، ويعززَ آمالَهم.

لقد كان للعقيدة دَورُها في تثبيتِ المؤمنينَ وتصديقِهم وعْدَ اللهِ ورسوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾[٢٠]، ومن ثَم قالوا: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾[٢١]، كانت حكمةُ النبيِّ ﷺ وحُسنُ تصرفِه عند الشدائد، كان اليقينُ الذي يمنحُ الصلابةَ والإصرارَ مع الطمأنينةِ والثقة، كانت البأساءُ والضراءُ والزلزلةُ التي صبروا عليها، اجتمعت أسبابُ النصرِ في هذه المعركةِ فكان نصرُ الله لعبادِه المؤمنين، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾[٢٢]، نصرَهمُ اللهُ بالريحِ التي لم تتركْ شيئاً للمشركين إلا أتت عليه، ونصرَهم على يهودِ بني قريظةَ ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ۞ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾[٢٣]

كان الرسول عارفاً بالحق الذي معه، واثقاً هو وصحابته من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على الباطل،، وأن النصر من سنن الله كما الابتلاء سنة من سننه سبحانه وتعالى ..

هو وعد النصر من الله، الوعد الحق الذي لا يتغير ولا يتبدل

الهوامش:

[١] رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)

[٢] الزمر : ٣٦

[٣] التوبة : ٤٠

[٤] الأنفال : ٥-٦

[٥] رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه مسلم (١٧٦٣)

[٦] آل عمران : ١٢٣

[٧] الأنفال : ٤٩

[٨] الأنفال : ٩-١٠

[٩] الأنفال : ١١

[١٠] الأنفال : ١٧

[١١] محمد : ٧

[١٢] الترمذي ٢٣٨/٥، وأحمد ١٨٢/٤، والحاكم ٥٢٥/١ و٥٢٨ وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٧١/٣.

[١٣] البقرة : ٢٥٠

[١٤] آل عمران : ١٤٧

[١٥] الأحزاب : ٩-١١

[١٦] رواه أحمد (٣٩٢/٥)، ومسلم (١٧٨٨)

[١٧] المعجم الكبير:ج١١/ص٣٧٦ ح١٢٠٥٢

[١٨] الأحزاب : ١٠

[١٩] الأحزاب : ١٠

[٢٠] البقرة : ٢١٤

[٢١] الأحزاب : ٢٢

[٢٢] الأحزاب : ٢٥

[٢٣] الأحزاب : ٢٦-٢٧

[٢٤] محمد : ٧

المراجع:

(١) شرح العقيدة الطحاوية، الشيخ الدكتور سفر الحوالي

(٢) تثبيت أفئدة المؤمنين بذكر مبشرات النصر والتمكين، الدكتور سيد بن حسين العفاني

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، الدكتور علي محمد الصلابي

(٤) مقالات منوعة

WWW.ELTWHED.COM

مجلة منتدى التوحيد

جميع الحقوق محفوظة لموقع منتدى التوحيد، لتواصلكم واقتراحاتكم زوروا منتدانا